روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

٦

أسطورة رأس ميدوسا



١ ـ الأسطورة ..

تقول الأسطورة الاغريقية إن (برسيوس) البطل المغوار كان واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين تزخر بهم الأساطير اليونانية ؛ شديد الوسامة شديد البأس .. وهو ـ كالعادة ـ ابن (زيوس) من امرأة بشرية ..

وعلى حين كان إخوته من الأب يمارسون أعمالهم .. (هرقل) مشغول بقتل (الهيدرا) .. (وأطلس) منهمك فى رفع الكرة الأرضية .. و (بروميثيوس) معلق بين الجبال يتلقى عقابه الأبدى ، و (جاسون) يبحث عن الفروة الذهبية ؛ كانت هناك مهمة أكثر تعقيدًا تنتظر (برسيوس) ..

كانت (كاسيوبيا) الحسناء المغرورة قد بالغت فى غرورها ووقاحتها إلى درجة أثارت حنق سادة (الأوليمب) ؛ لهذا سلطوا على جزيرتها الفيضانات والزلازل .. ثم جاءت الطامة الكبرى حين أرسلوا للجزيرة تنينًا مرعبًا اسمه (الكراكون) ، وكان هذا التنين يطلب ـ كالعادة ـ أن يقدموا له القرابين البشرية ، وإلا أغرق الجزيرة بما عليها ..

وهكذا وجدت (كاسيوبيا) نفسها مرغمة على تقديم ابنتها الجميلة (أندروميدا) لإشباع شهية التنين الشره .. ، وهكذا كانت (أندروميدا) هى الضحية القادمة ما لم يحدث شىء ما ..

وفى هذه اللحظة يصل (بروسيوس) إلى الجزيرة .. وطبعًا يقع فى حب الفتاة المختارة لقربان التنين ، ويصمم على قتل الوحش لإنقاذ فتاته .. ولكن كيف ؟..

إن هناك طريقة واحدة لكنها أفظع من التنين نفسه .. رأس ميدوسا ..!

إن (ميدوسا) وأختيها هن أشنع ما ذكر فى الأساطير اليونانية من مخلوقات ، ويسمونهم (الجرجونات الثلاث) .. لقد كانت (ميدوسا) وأختاها فتيات طبيعيات جدًا حتى غضب عليهن (زيوس) فأحالهن إلى ....

أولًا : تحولت الأيدى إلى نحاس ..

ثانيًا : إزددن بشاعة وصار لسانهن مشقوقًا كلسان الأفاعى ..

ثالثًا : تحول شعرهن إلى ثعابين ذات فحيح .. ولدغتها قاتلة ..

رابعًا : ـ وهذا أسوأ ما فى الأمر ـ صارت نظرتهن كافية لأن تحول من تلتقى عيناه بأعينهن إلى حجر ..

خامسًا : نفين إلى جزيرة فى البحر المتوسط لم تحددها الأسطورة حيث يعشن فى الكهوف ، وسط عشرات التماثيل الحجرية لأولئك البحارة التعساء الذين ألقى بهم الحظ العاثر على شاطئ تلك الجزيرة ..

إنه عقاب قاس لكنه ليس أقسى عقاب فى الأساطير الإغريقية .. فكما ذكرنا كان هناك عقاب (بروميثيوس) الذى قُيد بين جبلين وفى كل يوم يلتهم الرخ كبده .. وفى الليل ينبت له كبد جديد ، وعقاب (سيزيف) العبثى الذى حكم عليه بدحرجة صخرة إلى قمة الجبل فكلما وصل القمة سقطت الصخرة للسفح ، وعقاب (تنتالوس) الذى كلما حاول الشرب من النهر هرب الماء منه ، وكلما حاول الوصول لتفاحة ارتفعت الأغصان لأعلى ... دعك من عقاب (إيكو) و (برسفونية) .. وسواهم ..

والآن ...

عليك يا (برسيوس) أن تقطع رأس (ميدوسا) !!

ولكن كيف ؟.. كيف يمكن مواجهة مخلوق بهذه الصفات ؟.. دعك من السؤال الأهم .. كيف تقتل مخلوقًا دون أن تراه ..؟!..

لكن (برسيوس) ـ مثله مثل (هرقل) و (ثيذيوس) ـ بطل إغريقى أصيل .. يبحث عن المتاعب حيث وجدت ويحمل قدره على كفه ولا يملك الاختيار ... لهذا يروق كثيرًا لسادة الأوليمب ... ولهذا يتلقى زيارة من (هرمز) يحمل له بعض الهدايا التى تبرع بها كل من وجد لديه شيئًا يتبرع به ..

الخوذة التى تخفى من يرتديها .. والسيف الذى

لا يضرب إلا ويصيب هدفه .. ثم الدرع البراق الشبيه بالمرآة .. لا بأس بتاتًا ..

والآن ينطلق (برسيوس) مع رفاقه عبر مياه البحر المتوسط قاصدين جزيرة الجرجونات الثلاث ... بالطبع حدث لهم مئات المصائب والغرائب فى رحلتهم مثل ما حدث (لجالون) و (أوليس) العائد من حرب طروادة ... ونحن لا نعرف مسار الرحلة بالضبط ولا الجزيرة المختارة لكن من الواضح أنها قريبة جدًا من جزيرة (كريت) ، ولن أطيل سرد القصة ..

دخل (برسيوس) كهف (ميدوسا) وقدماه ترتجفان كالـ (جيلى) وهذا من حقه .. حوله عشرات التماثيل الشنيعة لبحارة ماتوا قبل أن يفهموا ما الذى قتلهم ، الوجوه الصارخة .. الأكف المرفوعة .. كيف شعروا فى اللحظة التى خرجت لهم (ميدوسا) من الكهف لترمقهم بعينيها الداميتين ..؟.. هل فهموا لحظتها أن حظهم العاثر اختار لهم - بين كل جزر البحر المتوسط - جزيرة الجرجونات الثلاث ليغرقوا عندها ؟.. ترى هل تألموا ؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا ، فلماذا صرخوا ؟

أسئلة عديدة لابد أنها دارت فى رأس (برسيوس) ورفاقه وهم يتسللون فى حذر ما بين التماثيل باحثين عن ضالتهم عالمين أن هذه التماثيل ستزداد عددًا بعد دقائق ما لم تحدث معجزة ما ..

إن من شاهدوا هذه المشاهد فى فيلم (صدام الجبابرة) - والتى خلقتها عبقرية ساحر المؤثرات البصرية (راى هارى هاوزن) - لن ينسوا هذا الجو الكابوسى أبدًا .. إلا أن (ميدوسا) لم تكن تزحف كالثعبان ولم تكن تطلق السهام .. ولم تكن تعيش وحدها ..!..

والآن تصحو (ميدوسا) من النوم وتنفخ الثعابين فى شعرها ... فيخفى الرجال وجوههم خلف الدروع ... وتصرخ .

- من ذا الذى يجرؤ على إزعاج (ميدوسا) ؟!

فيصيح (برسيوس) مداريًا وجهه :

- أنا (برسيوس) .. جئت لأقتلك ..!

وتتقدم (ميدوسا) - وشقيقتاها نائمتان لحسن الحظ - نحو أول الرجال فيتعثر وتلتقى عيناه بعينيها فيصرخ صرخة رعب لا توصف ، ويتحول لحمه إلى حجر ..

وهنا توجد نهايتان مختلفتان للأسطورة .

النهاية الأولى : تقول إنها رأت وجهها فى انعكاس درع (بروسيوس) البراق فصرخت وتحولت لحجر ...

النهاية الثانية تقول إنها تقدمت نحو (برسيوس) الذى

استجمع شجاعته وحماسة المكان عنده ليطير رقبتها بضربة واحدة ثم يبادر بالفرار قبل أن تصحو أختاها ..

إن هناك شيئا واحدا مؤكدا ـ إذا أمكننا أن نقول ذلك عن أسطورة ـ هو أن (برسيوس) قد قتلها ...، ولم يمس شقيقتيها ، وأنه عاد بالرأس فى كيس ليظهره أمام التنين فى اللحظة المناسبة قبل أن يبتلع هذا حبيبته (أندروميدا) ـ حبيبة (برسيوس) طبعًا وليس التنين ـ وليتحول الوحش إلى تمثال حجرى .. وتسود السعادة البلاد ..

الآن حق لـ (برسيوس) أن يستريح ويتزوج ويهنأ بالًا ..

أما نحن فلن نستريح حتى نعرف الإجابة على سؤالين ..

ماذا حدث للرأس ؟.. وماذا كان مصير الجرجونتين الباقيتين ؟ بالنسبة للسؤال الأول لم تتفق الأساطير على إجابته .. ثمة حكايات تقول إن (برسيوس) رمى الرأس فى مياه البحر ...، وثمة حكايات تقول إنه أهداه لـ (حيرا) زوجة (زيوس) لتتخلص به من أعدائها ، وثمة حكايات تتجاهل الأمر برمته تاركة ذلك لخيالنا ..

السؤال الثانى ظل ـ وسيظل ـ بلا إجابة .. ماذا حدث للشقيقتين ؟!

والآن تعالوا نغلق كتاب الأساطير تاركين (برسيوس) مع عروسه الجميلة و (ثيثيوس) فى المتاهة مع المينوطور .. و (ديدالوس) يرفرف بجناحين من شمع مع ابنه إيكاروس الذى أرجو ألا يقترب كثيرًا من الشمس ..

تعالوا نترك كيوبيد ويسشيه يتهامسان .. وشارون مبعوث الجحيم مع كلبه ذى الرأسين ..

لنترك هذا العالم الساحر ونعود إلى أرض الواقع ..

إلى الجزيرة الصغيرة الهادئة حيث يقوم عالم الآثار اليونانى (ستافروس نندرينوس) ببعض الحفريات .. وحيث ستحدث كارثة بعد قليل ..

* * *



٢ ـ هـى ..

جزيرة (كارادوس) فى بحر (إيجه) .. الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٦ ..

كان الحرّ شديد الرطوبة يلتف حول كل شىء .. خانقًا .. كريهاً .. لزجًا ، وهناك فى خيمته والبعوض يحاصره والذباب يلتهم طعامه بدا لعالم الحفريـات العجـوز (ستافروس ديندرينوس) أن الحياة لا يمكن أن تكون أسوأ ما هى عليه فى هذه اللحظة ، ومن حين لآخر كان ينظر إلى الصخور المكونـة لمجموعة الكهوف الملاصقة للشاطئ شاعرًا بالاشمئزاز والمقت لكل شىء ..

ها هو ذا يزحف نحو السبعين من عمره دون أن يضيف شيئا أو يعرفه أحد ... فى كل مرة يحدث نفس الشىء ، إناء محطم من الخزف أو قطعة بلهاء من تمثال يتيه بها فخرًا وسرورًا لدقائق ثم يكتشف أن أحدًا لا يعبأ بكل هذا .. ما هى الفائدة المرجوة من أن تعرف أن جنديًا يونانيًا كسر طبقه فى هذا المكان أو ذاك منذ ثلاثين قرنًا ؟!.. الواقع ـ كما أدركه فى هذه اللحظة ـ أنه أضاع حياته عبثًا .. وبرغم احتفاظه بصحة لا بأس بها فإنه كان من أعماقه يشعر أن عمره قد تجاوز المئة بمراحل ، ولم يكن يدرى لماذا

يستمر فى أى شىء .. ومن الذى قرأ كتبه الثلاثة المملة عن (أنماط الخزف فى الحضارة الهللينية) ؟!..

ثم بعد ذلك يأتى الحر .. الحر اللعين ..

شرب كوبًا آخر من الماء سرعان ما تحول إلى قطرات عرق على جبينه ..، وكان قد ربط رأسه بمنديل كعادته ومن فوق المنديل وضع الكاب الواقى من الشمس فبدا كأحد جنود الحملة الإنجليزية فى الهند ..، اليوم هو آخر أيام الحفر فى هذا الموقع وبعد هذا ..وبعد هذا مقبرة أخرى والمزيد من الأوانى الخزفية المحطمة .. وهكذا حتى يأتى اليوم الذى لن يصحو فيه من النوم صباحًا وسيقول القس كلمات كثيرة عن (شهيد العلم الذى فارقنا) .. وبعدها سينسى الجميع حتى أنه وجد أصلًا ..

ومن بعيد كان (نيكوس) قادمًا يترنح والمعول فى يده ..

ـ سيدى .. هناك جدار من الصخر .. صخر هشّ للغاية ، وقد حطمت جزءًا كبيرًا منه هل ستأتى معنا ؟!

ـ جدار من الصخر ؟.. ولماذا بحق السماء ؟.ـ

قال (نيكوس) بعد أن بصق على الأرض ومسح شاربه الكث :

ـ لا أدرى .. المقبرة هى المقبرة .. لكن هذا الحائط يعطى انطباعًا ما .. كأنه يعزل شيئًا ما عن باقى الكهف ..

للحظة تأمل عالم الحفريات العجوز فى معنى كلمات العامل .. جدار يعزل شيئا ما عن باقى المقبرة .. غريب .. ولكن ماذا سيسفر عنه كل هذا سوى المزيد من التماثيل المحطمة ؟!

ـ وبعد سيدى .. هل نستمر ؟

نظر عالم الحفريات إلى ساعته .. إنها الخامسة مساءً وبعد قليل سيخيم الظلام .. ربما كان من الحكمة أن يؤجل هذا كله إلى الغد ، ثم إن هؤلاء البؤساء لم ينالوا قسطًا من الراحة من التاسعة صباحًا .. نعم .. يستطيع التاريخ اليونانى أن ينتظر ليلة أخرى .. جفف قطرات العرق من فوق زجاج نظارته وغمغم :

ـ اسمع يا (نيكوس) .. يمكنك أن تواصل الحفر إذا كان الفضول يتملكك .. لكن لا تجبر أحدًا من الرجال على العمل إذا لم يرد ذلك .. إن غدًا لناظره قريب .. ثم جفف عرقه وتثاءب :

ـ أعتقد الآن أننى بحاجة للحمام والنوم .. فليذهب (زيوس) للجحيم ..

ابتسم (نيكوس) من خلف شاربه الكث ، وأخرج سيجارة من صندوق معدنى :

ـ وإذا وجدنا شيئًا .. هل نناديك ؟!..

ـ بالطبع .. ولكن ليس لشىء أقل من (أجاممنون)(*) نفسه ..!

(*) أجاممنون نفسه : واحد من أشهر أبطال حرب طروادة .

واستدار (ستافروس) متجهًا إلى كوخه ـ ومسكنه ـ وهو يمسك بظهره متوجعًا .. فى حين عاد (نيكوس) إلى العمال ليصرفهم .. وعلى حين بدأ الرجال فى العودة مغبرين غارقين فى العرق التفت (ستافروس) إلى كبير عماله ، هاتفًا :

ـ (نيكوس) .. كن حذرًا .

* * *

وفى كوخه غسل (ستافروس) وجهه فى طبق به بعض الماء وصابونة .. وارتدى نظارته ، ثم إنه صب لنفسه بعض (الأوزو) فى كأس وشرع يجرع فى مرارة .. المروحة الصدئة تئن ولا تفعل شيئًا تقريبًا فقد فرغت بطاريتها ..

أخرج دفتر مذكراته وقلم الحبر .. وأشعل موقد الكيروسين طالبًا بعض الضوء حيث إن الظلام كان قد بدأ يزحف .. وفى الدفتر خط الكلمات التالية :

ـ آخر يوم فى الحفر .. يبدو أن هناك شيئًا يستحق الاهتمام .. لقد وجد (نيكوس) نوعًا من الجدار المزدوج فى المقبرة .. ويقول إن هذا الجدار يدارى شيئًا ما .. شيئًا حرص من حفروا المقبرة على عزله .. وجرع جرعة أخرى من الكأس ..

منذ شبابه لم يشعر بهذا التوتر الغريب .. شعور غامض يداهمه أن شيئًا ما سيحدث .. هذا الشعور لم

بداهمه سوى مرة واحدة يوم أن ماتت زوجته فى ذلك الحادث الشنيع .. السيارة .. النيران .. و ...

ما هذا ؟..

هل سمعت هذه الصرخة ؟.. هذه الصرخة المريعة الطويلة القادمة من أعماق الجحيم ؟.. كاد قلبه يتوقف عن الخفقان .. ثم إنه هرع لباب الكوخ حيث الغروب قد بدأ يصبغ المرتفعات باللون القرمزى .. لاشك فى ذلك .. إن الصرخة قادمة من موقع الحفريات الذى يبعد مئتى متر عن هذا الكوخ ..

(نيكوس) كان يواصل الحفر وحيدًا مدفوعًا بشغفه لمعرفة ما وراء الجدار .. ماذا حدث ؟.. انهيار ؟.. ذئب ؟.. كلا .. إنها صرخة غير عادية .. حتى الإنسان الذى يلتهمه ذئب فى تلذذ لا يجد ضرورة قوية لأن ينهك حنجرته بمثل هذه الصرخة .. لا يوجد فى الكون كله حافز يدفعك لأن تصرخ بهذا الشكل ..

والآن هناك شىء واحد يمكن عملـه .. البندقيـة والكشاف .. وليهرع ليرى ما حدث ، وليصمت وجيب قلبه قليلًا .. ليس الوقت مناسبًا للإصابة بنوبة قلبية .. لقد حدث شىء ما .. وهو الوحيد الذى سمع تلك الصرخة ، وهو الوحيد الذى سيرى ما أصاب هذا التعس (نيكوس) ..

* * *

عند بوابة المقبرة أطلق شعاع بطاريته .. لاشىء .. بقايا الحفر وأدوات العمال ... أدخل قدمه فى حذر من الفتحة وخطا للداخل ...! وشرع يدير شعاع البطارية على النقوش الجدارية المألوفة .. ثم تصلب الشعاع على فتحة بحجم رجل فى الجدار المقابل ... هذه هى فتحة الجدار التى اصطنعها (نيكوس) الأمين ليدخل إلى الغرفة السرية .. ربما منذ دقائق ..

اتجه إلى الفتحة وكتم أنفاسه وسلط الشعاع على الداخل .. غرفة خاوية تفوح منها روائح العفن ... تمثال حجرى كامل لشخص جاثٍ على ركبة واحدة .. وثمة بعض الدروع الصدئة مبعثرة هنا وهناك ..

إذن أين (نيكوس) ؟..

سلط الشعاع على التمثال الحجرى متقن الصنع إلى حد غير عادىّ .. الشارب الكث والقلنسوة .. والوضع الجاثى الذى لم يره فى أى تمثال إغريقى من قبل .. ثم .. شارب وقلنسوه ..؟!

وهنا انتصب الشعر فى مؤخرة رأسه ... وأعاد تأمل ملامح التمثال ..كلا ..! هذا مستحيل ..!.. لقد فهم ..!.. أن هذا التمثال هو .. هو .. (نيكوس) نفسه !!..

* * *

بعد أن خرج من المقبرة .. وضع قرصين من (النتروجلسرين) تحت لسانه ، وانتظر حتى هدأ قلبه من رفرفته .. ثم إنه بدأ يستجمع شتات أفكاره التى بعثرها الذعر الحيوانى الجارف ..، إنه لا يحلم .. والآن لا يوجد فى العالم شيء يمكن أن يحول الإنسان إلى حجر .. لا شيء في العالم المادى ، لكن هناك شيئًا واحدًا فى عالم الأساطير .. شيئًا واحدًا يملك هذه القدرة .. وهو عالم آثار يونانى ويعرف تمامًا هذا الشيء ..

سيعود للكهف ولكن بحذر ..، عاد للفتحة فى الجدار .. ودلف منها إلى الحجرة الكابوسية .. كان تمثال (نيكوس) ـ كما قلنا ـ جاثيًا على ركبة واحدة يرمق فى رعب شيئًا ما على الأرض .. شيئًا أزاح عنه التراب لتوه ..

أغمض (ستافروس) عينيه فى عصبية وجثا على الأرض بين يدى التمثال وتحسس الشيء حتى وجده .. وجده .. أشياء طويلة تخرج حيث ينبغى أن يكون الشعر .. نعم !.. إنه هو ..!..، وفى حذر أخرج كيسًا قماشيًا سميكًا من جيبه ودس فيه الشيء البشع .. ثم فتح عينيه ليجد أمامه وجه التمثال المليء بالرعب حيث جثا على ركبة واحدة أمامه كأنما يتفحصه ..

* * *

وفى الكوخ علق (ستافروس) الكيس بما فيه على مسمار فى غرفة النوم ، ثم عاد مرتجفًا إلى مكتبه ، وخط الكلمات الآتية :

.. لقد وجدنا رأس (ميدوسا) !.. وكلفنا ذلك غاليًا ، إن المسكين (نيكوس) قد فوجئ وهو يحفر فى التربة برأس ذلك الكابوس يرمقه أن هناك الكثير من الأسئلة وكثيرًا من علامات الاستفهام لكن الشيء المؤكد لى هو أننى على أبواب أعظم وأخطر كشف فى هذا القرن .. رأس (ميدوسا) ..!

* * *

نعم .. هناك الكثير ..، وحين يسلم هذا الرأس لقبضة العلم ليتم تصويره بأشعة جاما .. ودراسة جزيئاته وتحور الكربون فيه .. وتشريحه ... و ... و ....، لقد كشف (كارتر) مقبرة توت عنخ آمون ، أما هو .. (ستافروس دندريتوس) فقد وجد رأس (ميدوسا) !.. رأس (ميدوسا) سالمًا ومحتفظًا بلعنته بعد كل هذه القرون ... فى نشوة رفع نظارته السميكة على قصبة أنفه ..

و.... صوت الخرفشة هذا ..

لقد نسى الفئران تمامًا !.. الفئران التى تملأ الكوخ والتى ستجذبها حتمًا رائحة الشيء شبه المتحلل ...، نهض



لقد نسى حذره للحظة .. ربع ثانية لكنها كانت كافية ..

ـ وقد عزم أن يضع الكيس فى خزانته حتى الصباح ـ حاملًا فى يده مصباح الكيروسين ..

فى غرفة النوم وجد بالفعل الكيس وقد سقط من على المسمار وفأرًا يهرع منسلًا من فوق عروق الخشب القديمة المبطّنة للغرفة بعد إن ضبط متلبسًا .. انحنى جوار الفراش ليرفع الكيس وهو يسبّ .. ووضع المصباح على الأرض ..

إن شرود الذهن يحدث للجميع .. وخاصة كبار السن .. وبشكل أخص يحدث للعلماء ، لكن شرود الذهن ليس مبررًا لهذا الخطأ القاتل ..

لقد نسى حذره للحظة .. ربع ثانية لكنها كانت كافية ..

كان الكيس قد انفتح عندما أسقطه الفأر ..

وهنالك ـ جوار الفراش ـ وجد نفسه يحدق فى العينين الجهنميتين لـ (ميدوسا) ..!

* * *

٣ ـ صداقات قديمة ..

نهاية العام الدراسى فى مصر ..

كنت فى ذلك الوقت غارقًا حتى أذنى فى المحاضرات الختامية لطلبتى عن أمراض الدم ، وكانوا يحاولون فى خبث جعلى أنزلق بالكلام كاشفًا عن بعض الأسئلة التى تجول بخاطرى والتى يمكن أن أضعها ـ لا شعوريًا ـ فى ورقة الامتحان ، وكنت أنا معتادًا على هذه المواقف وأحسن التلاعب بهم وتضليلهم حتى لا يعتمدوا كثيرًا على ذكائهم أو على حماقتى ..

وفى ذلك اليوم الحار كنت أحدثهم عن سرطان الدم النخاعى ، حين لاحظت أن ثلاث طالبات جالسات يتهامسن فى خبث ويرمقنني .. ويضحكن ..

لقد اعتدت هذه المواقف من الفتيات ..، وليس هذا لعيب واضح معين فى طباعى أو شكلى أو سلوكى .. بل هو ـ ببساطة ـ لأننى لم أتزوج بعد وقد بلغت الأربعين من العمر !، والمرأة تفهم أن يكون الرجل غبيًا أو جبانًا أو مجنونًا أو وقحًا .. تفهم هذا وربما غفرته له .. لكنها لا تفهم أبدًا ذلك الرجل الذى لا يتزوج !..

إنها تسىء به الظنون وتنسج حوله مئات العقد النفسية .. غير عالمات ـ سامحهن الله ـ أنه لم توجد فى الكون سوى (ماجى) واحدة ، وكانت لى ، ثم ذهبت ولم تترك لى (ماجى) أخرى .. الأمر بسيط إذن !..

المهم أننى أزمعت أن أوجه لهن لومًا ما .. إلا أننى لاحظت أنهن يمسكن بجريدة ما تحت الطاولة يتفحصنها ويواصلن الهمس الماكر ويختلسن النظر لى ..

شىء ما فى هذه الجريدة يتعلق بى بالتأكيد .. هذا غريب !..

* * *

وفى الاستراحة توجهت إلى غرفتى .. وفتحت درجى لأتفحص جرائد اليوم التى لم أقرأها بعد ..، وفى إحداها وجدت ضالتى ..، كانت هناك صورة صغيرة باهتة لى أنا و (هارى شيلدون) نبتسم للكاميرا فى بلاهة .. وتحتها تعليق صغير يقول إن إحدى الجرائد الأمريكية نشرت خبرًا عن خبير كمبيوتر أمريكى وأستاذ مصرى استطاعا أن يكشفا سر الزومبى فى جامايكا وأن يوقعا بمدير مستعمرة جذام فرنسى أساء استغلال مرضاه ..

هذا هو الخبر ..، إذن نشروا بالفعل ذلك التحقيق الصحفى الذى أجروه معنا عند عودتنا من مغامرتنا

الكابوسية السابقة فى جامايكا ... وتسرب هذا الخبر إلى محررنا المصرى ..

لم يذكر الخبر اسمى لكن وجهى كان واضحا فى الصورة ، وللأسف كان منشورا فى ركن صغير مهمل من الجريدة حتى أننى أنا نفسى لم أكن لألاحظه لولا أن لاحظته طالباتى الثلاث الخبيثات ..

يا للفخر !... لكم تمنيت لو يسمح لى العميد بتوزيع نسخة من هذه الجريدة على كل طالب وطالبة ليعرفوا كم أنا رائع !!.. لكنه سينسفنى حتمًا قبل أن أفعل .. وضعت الجريدة مفتوحة على تلك الصفحة فى أوضح مكان فى غرفة التدريس ... ثم شرعت افتح الخطابات التى وصلتنى وكلى رضا عن العالم ..

* * *

لم تكن المفاجآت قد انتهت ..

ها هو ذا خطاب من اليونان يصلنى ... وأنا لا أملك معارف فى هذا البلد ، لهذا تأملت المكتوب على المظروف فى فضول متجاهلا تلك الحروف اليونانية العجيبة ..

كان هناك اسم بالإنجليزية .. اسم من أرسل الخطاب .. مسز (تابيثا كاراداكيس) ..

أنا أعرف واحدة تحمل اسم (تابيثا) .. لكننى لا أعرف هذا الكا .. الكاراداكيس .. على كل حال فتحت الخطاب فى توتر .. فوجدت صورة جميلة - ومفزعة - بالقلم الرصاص تمثل رجلا يقف ما بين مصاصى دماء وأشباح وهياكل عظمية .. وهذا الرجل هو صورة كاريكاتورية لى أنا !.. وتحتها خطت حروف بالإنجليزية تقول : تذكر أن هناك دائمًا مرة أخيرة !!..

فتحت الورقة المصاحبة للرسم فوجدت السطور التالية :

عزيزى رفعت ..

لقد مر دهر كامل منذ سفرك عائدا إلى مصر ...، ولا أدرى حقًا إن كنت نسيتنى أم لا ...، أنا (تابيثا ماكجفرت) .. هل تذكرنا فى جامعة داندى ؟ كنت أنا من شلة (ماجى ماكيلوب) ، كنت تجد صعوبة فى تذكر اسمى .. ولكم كانت (ماجى) تغار عليك منى !..

حسن .. لقد ذهبت تلك الأيام إلى الأبد ... أما أنا فقابلت شريك حياتى فى أثناء زيارته لاسكتلندا .. عالم الآثار اليونانى الوسيم (ميخائيل كاراداكيس) .. ومن لحظتها غدوت السيدة (كاراداكيس) وعدت معه إلى بلده الجميل اليونان .. وانقطعت علاقتى باسكتلندا ..

أما عن مسار حياتى ، فأنت تعلم كم كنت أعشق الأدب .. وفى بلد كاليونان وجدت جذورى الحقيقية .. واتجهت إلى الكتابة وخاصة قصص الرعب التى لا أدرى لماذا أبى قلمى أن يخط سواها ..، ولى فى أسواق أوربا كتاب أو اثنان متوسطا النجاح ..

إن زوجى يعمل حاليًا فى مجموعة من الجزر الصغيرة فى بحر (إيجه) ما بين (كريت) و (رودس) ، وعمله مثير إلى أقصى حد ..، تصلنا الجرائد العالمية مرة كل شهر تقريبًا .. وفى الشهر الماضى كنت أتصفح إحدى الجرائد الأمريكية حين وجدت مقالة عن مغامرة مع الزومبى قام بها أمريكى وطبيب مصرى .. وكانت صورتك منشورة أعلى المقال ، إنك تزداد قبحًا عامًا بعد عام (!!) إلا أن نظرتك المميزة وقامتك الناحلة لم تتغيرا أبدًا ..

وكان المقال يحكى عن طبيب مصرى اسمه (رفعت إسماعيل) (يهوى) مصاصى الدماء والمذءوبين وأكلة لحوم البشر ..، هرعت وأرسلت خطابًا لـ (ماجى) فى (انفرنسشاير) أسألها عما إذا كنت أنت هو هذا الذى تتحدث عنه المقالة أم أن حالة هلوسة قد أصابتنى ..، وعلمت من ردها أنك المعنى بالفعل .. وأنك لم تتزوجها ـ رغم كل هذا الضجيج ـ وأنك أنقذتها من وحش (لوخ نس) نفسه ..!.. وأعطتنى عنوان جامعتك ..

والآن .. أكتب لك يا (رفعت) ـ اسمح لى برفع الكلفة ـ كى أقول لك إن هناك أشياء غير عادية تحدث فى هذه الجزر ، وأننى وزوجى فى أمس الحاجة للاستعانة بخبرات (استشارى رعب) مثلك ..

لن أحكى لك التفاصيل ..، لكنى أؤكد لك أن الأمر سيثير اهتمامك ..، وأنك ستحب اليونان ، وستحب (ميخائيل) زوجى ، وستجدد صداقتك القديمة مع شيطانة الجامعة الموهوبة (تابيثا ماكجفرت) ..

بانتظار ردك ..، وستكون تذكرة سفرك على نفقتنا أنا وزوجى لأن هذا جزء بسيط من دين الصداقة ، فقط قل لى متى وأين وكيف نقابلك ...

إنك لن تنسى ما حييت هذه الرحلة ...

بإخلاص :

(تابيثا كاراداكيس)

أغلقت الخطاب وغرقت فى دوامة الذكريات .. (ماجى) وأنا وأشيبالد وتابيثا .. والشباب المرح المفعم بالآمال .. ورسالة الدكتوراه التى يشرف عليها السير (جيمس) والد (ماجى) نفسه ... و ...

لن أنسى هذه الرحلة أبدًا .. هكذا قالت .. وهكذا توقعت أنا ، لم أمارس فى حياتى أية تجربة يمكن نسيانها حتى

اللحظة ..، وقبل كل سفر لى كنت أجد دائمًا من يعدنى بأننى لن أنسى .. وبالفعل لا أنسى !.. وإن حشد الرحلات التى لا تنسى فى مخزن ذاكرتى قد تزايد إلى حد أننى لا أجد مكانًا للنوم !..، وعدنى د. (رتشارد كامنجز) .. و (جوستاف)، و د. (عاصم) .. وسير (جيمس) .. و (هارى شيلدون) .. و (عادل) .. إننى لن أنسى ..، وبالفعل كانوا محقين !!..

إلا أن موضوع الرحلة يثير شغفى ، واليونان بلد عريق الحضارة ملىء بالأفكار يستحق أن يضاف إلى قائمة البلدان التى لن أزورها مرة أخرى فى حياتى !..

المهم الآن أن أنهى أعمالى سريعًا .. وأن أبدأ إجراءات إجازتى بمجرد انتهاء موسم الامتحانات ..

إن (كريت) لن تنتظرنى كثيرًا ..

* * *

٤ - رعب جديد ..

[ولكننى أعرف هذا التمثال .. هذا الوجه المذعور ..] ..

* * *

أخذ الزورق يشق طريقه بين أمواج بحر (إيجه) وقد بدا للنوتى أن الحياة كلها صفحة من الماء يجب أن يشقها إلى نصفين ..، إلا أن الماء كان يخدعه ويلتئم كلما تأكد من أن الزورق قد ابتعد .. وأن النوتى لم ير ما حدث !..

رائحة البحر وطيور النورس الأنيقة .. وتململ الركاب يؤكد أننا وصلنا إلى جزيرة (كارادوس) ..

لن أحكى لكم عن دوار البحر الذى أصابنى حتى لا تشعروا بالملل من ضعفى .. أنا لا أفعل أى شىء يستطيع أبطال القصص أن يفعلوه .. وإنه لحظكم السيئ الذى أوقعكم مع بطل قصة مثلى مصاب بدوار البحر والربو والذبحة الصدرية والشيب ..!..

إنها جزيرة (تابيثا) حيث يعمل زوجها وحيث ضربت لى موعد اللقاء .

* * *

وصل الزورق إلى الشاطئ .. وشرع الركاب ينزلون
وأنا بينهم .. لم يبدُ على واحد منهم أنه (مسافر) سواى ،
فهم ـ كما هو واضح ـ قد اعتادوا التنقل بين الجزر كأنهم
يتنقلون فى ضواحى مدينة واحدة .. ، بل كانت هناك امرأة
أو اثنتان تحملان بعض الحاجيات التى اشترتاها من
(كريت) .. كأنهما عائدتان من السوق ..

نزلت على الأرض وقدماى ما تزالان تشعران
بتأرجحهما .. ، وعن كثب لمحت صديقتى القديمة (تابيثا)
وزوجها (ميخائيل) يرتديان نفس الثياب تقريبًا .. قميص
بسيط وبنطلون من قماش خشن سميك وقبعة .. وكانا
يلوحان لى فى مرح ... اتجهت نحوهما حاملًا حقيبتى ..

وكان زوج (تابيثا) شديد الوسامة فارع القامة كممثل
لأدوار الفتى الأول .. أما هى فكانت بقبحها المعهود مع
احتفاظها بروحها المرحة وسرعة بديهتها .. ، وركبنا
سيارة (جيب) عتيقة تمخر بنا فى شوارع القرية
ـ أو الجزيرة لا أدرى بالضبط ـ وسط نظرات الفضول ..

الكل ينظر إلينا بلا استثناء ..

الرجال بشواربهم الكثة على المقاهى .. والأطفال الذين
يلعبون حفاة فى الطرقات .. والحسناوات العائدات بجرار
المياه من (الطلمبة) .. والعجائز المتسربلات بالسواد
اللواتى يشبهن عجائزنا فى مصر إلى حد مروّع ..

وتبدأ الهمسات والنظرات الجانبية .. إنه ليس جوًا
عدائيًا .. ، فقط هو جو كل هذه البلدان المنغلقة على نفسها
والتى يكون وصول وجه غريب إليها حدثًا جللًا .. ربما
يصير يومًا يؤرخون به الأحداث فيما بعد ..!

فيما عدا ذلك كان المكان رائعًا .. وبهيجًا ..

* * *

أشار (ميخائيل) إلى الكوخ وقال بإنجليزية رديئة جدًا
وهو يشدّ فرملة اليد :

ـ هذا .. بيتك .. وبيتنا ..

نزلت من السيارة مبديًا علامات الانبهار لأخفى خيبة
الأمل تجاه هذه الكومة النخرة من الأخشاب التى سأعيش
فيها .. ومعهما !.. ، على كل حال لم أنس أن هذين
الزوجين موجدان فى الجزيرة بصورة مؤقتة وليس من
صواب الظن أن أعتقد أنهما يملكان فيها قصرًا ..

أشرت إلى كوخ على بعد مائة متر حالته أكثر سوءًا ..
وقد بدا كئيبًا كالكابوس :

ـ وهذا ؟..

قالت (تابيثا) وقد تبادلت مع زوجها نظرة ذات معنى :

ـ هذا بيت الأستاذ (ستافروس نندرينوس) .

ثم فتحا لى باب الكوخ الخاص بهما .. ، دلفت وأنا أشمّ
فى الجو رائحة لا تطاق .. الخشب المغطى بالرطوبة

والطحالب .. ونقص التهوية ، لكنى سأتعود !.. المهم ألا يهربا هما أوّلا فرارًا من رائحة سجائرى التى ستلتهم هواء هذا الكوخ بعد دقائق ..! وقادنى (ميخائيل) إلى غرفة بها فراش صغير .. ومكتب .. وخزانة ثياب ..، غرفة نظيفة فى الواقع ومريحة .. لولا تلك الرائحة اللعينة، وأشار لى إلى وعاء للغسيل وقطعة صابون ومنشفة .. ثم تركنى لأستعد للعشاء .. إلا أنه تذكر أن يعود برأسه ليطل من الباب .. ويضم أصابعه أمام فمه بحركة ذات معنى :

ـ تذكر .. لا .. لا ..

كان يحاول البحث عن الكلمة .. وقد فهمت قصده لكننى تظاهرت بالحماقة لأغيظه :

ـ ساندوتش ..؟.. أحمر شفاه ؟..

ـ كلّا .. كلّا .. كلّا ..

ـ تدخين ..؟

ـ نعم .. نعم .. لا تدخين .. ممنوع ..!

قضى الأمر إذن ..!.. سأظل أشم هذه الرائحة للأبد لكننى ـ على الأقل ـ سأريح رئتى بعض الوقت طالما بقيت فى هذا الكوخ ..، استبدلت بثيابى ثيابًا مريحة أكثر .. وغسلت وجهى وشعرى ، ثم لحقت بهما فى المطبخ الواقع فى الجزء الخلفى من الكوخ ..، وكانت رائحة الطعام شهية حقًا .. على المائدة كميات هائلة من الأسماك المشوية والخبز و ـ بالطبع ـ الزيتون ..

وبدأ العشاء يسوده المرح .. قلت لـ (تابيثا) وأنا أكافح الأشواك فى إحدى الأسماك التى أجهل نوعها تمامًا :

ـ إن زواج كاتبة قصص بعالم آثار يذكرنى ..

تبادلت هى وزوجها نظرة باسمة ذات معنى .. وتساءلت فى خبث :

ـ يذكرك بمن ؟..

ـ « بـ (أجاثا كرستى) .. هى أيضًا كاتبة قصص وزوجها عالم آثار ، وتقول عنه .... » .

إلا أنها لم تهتم بباقى كلامى .. إذ التفتت لزوجها ، قائلة فى انتصار :

ـ ألم أقل لك إنه تقليدى ..؟! ـ ثم قالت لى مفسرة ـ كنا قد تساءلنا أنا و (ميخائيل) عما إذا كنت ستكرر ذلك التعليق السخيف الذى يقوله كل من يعرف بأمر زواجنا معتقدًا أنه تعليق عبقرى !.. وكان هو يرى أنك تبدو ذكيًا مبتكرًا ولن تقول نفس السخافات ، أما أنا فقلت إننى أعرفك جيدًا ..!!

احمرت أذناى خجلًا ... يا لك من شيطانة !..، لقد جعلت منى أحمق حقيقيًا أمام نفسى ، على العموم سنحاول تجاهل هذه الدعابة الثقيلة ولنتحدث عن أشياء أكثر مرحًا .. وما هى تلك الأشياء الأكثر مرحًا سوى الأشباح ..؟!!..

بدأت (تابيثا) تسألني في اهتمام عن كل ما ذكرته لها (ماجي) ... وبدت عليها الحيرة وخيبة الأمل حين أدركت أنني لست الخبير الذي كانت تظنه ... بل إن علاقتي بالأساطير هي (الهدم) وليست (البناء) ... فهي ـ ككاتبة قصص رعب ـ كان يرضيها بالطبع أن تكون النداهة والمذءوب والزومبي حقائق ... إلا أنها بدأت تفهم حقيقة أنني (بطل بالصدفة) يقع دائمًا في شراك هذه المواقف دون فضل له في ذلك ..

قال لي زوجها ، مبتسمًا :

ـ على كل حال .. أنت لم تبتعد كثيرًا عن قدرك حين جئت اليونان ..!

ـ ماذا تعني ..؟!..

ـ إن اليونان بلد شديد الغموض ، وأساطيره المرعبة لا نهاية لها ..

ثم تفكر قليلًا باحثًا عن الكلمات المناسبة .. وهمس :

ـ مثلًا أنت تظن أن (رومانيا) ـ وخاصة مولدافيا ووالاشيا ـ هي أصل أساطير مصاصي الدماء .. حسن .. هل تعرف أن مصاصي الدماء مألوفون جدًا في القرى اليونانية خاصة لدى العجائز ؟.. لا أعني بهذا أنهم موجودون حقًا ..

قالت (تابيثا) وهي تتلذذ بملامح الذعر على وجهي :

ـ يسمونهم (الفرايكولاكاس) ... وحتى اليوم توجد قرى يونانية تحشو فم المتوفى ـ خاصة إذا كان شابًا وميتته غير مبررة ـ بالثوم . وتضع قطعتي فضة على عينيه لمنعه من التحول إلى مصاص دماء ..!!..(*) .

أحسست بجلد ذراعي يتحول إلى جلد إوزة بسبب القشعريرة التي أصابتني من الفكرة ... ما سرّ هذه الأسطورة ؟.. ما سرّ تغلغلها في التراث الإنساني لكل الشعوب إلى هذا الحدّ ؟!... وتذكرت محاورة قديمة دارت بيني وبين د. (ريتشارد كامنجز) منذ .. منذ عشر سنوات ..!.. حين قال لي إنه لابد من أصل واقعي لكل أسطورة .. ترى أين هو ؟ وأين أسرته اليوم ..؟..

ـ والرجل الذئب ..

استطردت (تابيثا) وعيناها تلمعان في حماسة :

ـ هل تعلم أن أصل هذه الأسطورة هو اليونان وليس رومانيا ؟

ـ مستحيل ..

ـ إن أصلها من (أركاديا) ... طبيب يوناني هو (مارسليوس السايدي) وصف هذا المرض وأسماه (لايكانثروبي) ... أي (حالة التصور الذئبي) ... ووصف مرضًا

(*) حقيقة .

يتحول فيه الإنسان إلى ذئب يأكل اللحم النيىء ويعوى حين يرى القمر ... وقد وصلت هذه المقالة إلى الأطباء العرب عن طريق (إيطس الأميدى) ... وقد كتب عن هذا المرض أطباء عظام مثل (ابن سينا) و (الزهراوى) ... وأسموه بداء (القُطرُب) .. وهى ترجمة غير موفقة لكلمة (لايكا انثروبى)(*) .

- أنا .. أنا .. لم أعرف هذا بتاتًا ...

قلتها فى حيرة .. وقد عاودنى ذلك الشعور المرير القديم .. إننى أكتشف - كلما تقدمت فى السن - أننى لا أعرف شيئًا على الإطلاق ..

والآن يا (تابيثا) ماذا تتوقعين أن أقدمه لك ولزوجك من مساعدة وأنت كما هو واضح تعرفين كل شىء عن أى شىء فى العالم ..؟

* * *

قال لى (ميخائيل) بعد أن انتهى العشاء .

- هل أنت بحاجة للنوم ..؟

- بتاتًا .. إننى شديد الحماسة لرؤية هذه الجزيرة ..

- لا يوجد الكثير فى الواقع .. فمساحتها كما ترى ، وسكانها لا يتجاوزون المئتين كلهم صيـادون أو رعاة .. وقس .. وحفار قبور .. وصاحب مقهى ... إنها مملة حقًا ..

(*) حقيقة .

قلت له وأنا أنظر إلى (تابيثا) :

- والآن .. حدثنى عن الكابوس الجديد الذى ينتظرنا ها هنا والذى حاولت أن تتناساه بهذا الحديث المسلى عن مصاصى الدماء والمذءوبين ..!

بدت فى عينيه الزرقاوين نظرة حيرة .. عدم الفهم ، والتفت لزوجته متسائلا .. فأطلقت من فمها فيضًا - كطلقات المدفع الرشاش - من الكلمات اليونانية تترجم له عبارتى الملتفة التى لم يفهمها .. أوّل مرة ... ولما فهم - أخيرًا قال لى :

- معذرة.. فانجليزيتى ليست على ما يرام ، للأسف تعلمت (تابيثا) اليونانية كأهلها قبل أن أتعلم منها الإنجليزية ، وهكذا لا أمل لى فى التحسن ..

ثم استدار لها وفتح مدفعه الرشاش عليها مطلقًا مئات الجمل باليونانية ، فاتجهت إلى مصباح كهربى صغير ووضعته فى يده ..

- والآن تعال معى ..

سرت معهما إلى حيث اتجهنا إلى باب الكوخ ، وفتحاه .. كان الظلام قد بدأ يغمر الجزيرة وللمرة الأولى فهمت أنه لا يوجد ضوء كهربائى فيها .. البيوت المعدودة والأكواخ قد اتشحت بعباءة الظلام الكئيبة ، وعلى الشاطئ تنتشر

مجموعة من المرتفعات بها كهوف لا حصر لها ... أمشى خلفهما فوق الأحجار متجهين إلى ذلك الكوخ الكئيب الذى آثار فضولى لحظة أن وصلت ..

أضاءت له (تابيثا) المصباح على حين شرع يفتش مجموعة من المفاتيح أخرجها من جيبه .. وهمس لها بشىء ما .. ثم مد يده يعالج القفل الصدئ المثبت على الباب حتى فتحه ، ودعانى للدخول ..

وطواط أو اثنان يتحركان على السقف الخشبى للكوخ وقد أزعجهما الصوت .. لقد حان ميعاد الاستيقاظ أيها الزميلان فالظلام سيحل تماماً بعد دقائق .. رائحة العطن المميزة .. وثمة جو مشئوم يخيم على المكان ... بصوت هامس قال (ميخائيل) وعيناه متسعتان :

ـ هذا هو كوخ الأستاذ (ستافروس ديندرينوس) ..

ـ سمعت هذا من قبل ..

ـ إنه المشرف على الحفريات فى هذه الجزيرة .. ورئيس ..

ـ وهو لا يخاف الوطاويط أيضاً كما هو واضح ..

ـ كلا إنه ...

قالت (تابيثا) مقاطعة إياه فى فتور :

ـ دعك منه يا (ميخائيل) .. إنه يمزح لا أكثر ..

لم يعلق (ميخائيل) .. وتقدمنا نحو قاعة فسيحة نوعاً تبدو وكأنها كانت الصالة فى هذا الكوخ .. وكانت قطع الأثاث المعدودة البسيطة مغطاة بقطع من القماش المكسو بالأتربة وخيوط العنكبوت ..

وفى ركن القاعة كان هناك تمثالان مغطيان بالملاءات .. وأدوات حفر .. ومجموعة من الكتب محزومة بالحبال ..

انحنت (تابيثا) على الأرض والتقطت شيئاً ما .. ودسته فى يدى وهى تبتسم فى رقة .. تأملت هذا الشىء فوجدته تمثالاً لفأر صغير يتلوى .. تمثالاً متقناً إلى حد غير عادى ومصنوعاً من الحجر الجيرى ، وكانت إحدى قدميه الخلفيتين مكسورة :

ـ ما رأيك ..؟.. ظريف أليس كذلك ؟

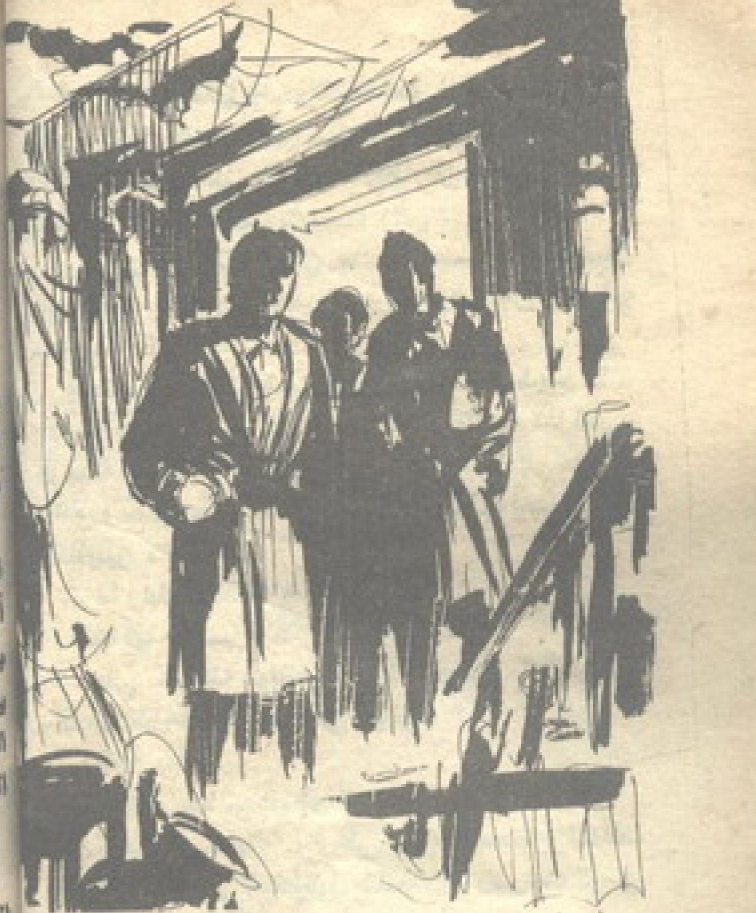
قلت لها فى حيرة ..

ـ بلى .. ولكنه موضوع غريب للنحت .. لا أذكر أنى رأيت تماثيل فئران كثيرة فى حياتى ..

ـ لكنه مُتقن ..

ـ لا أنكر هذا .. هل هو أثر إغريقى ؟

ابتسمت فى خبث .. وعلى ضوء المصباح الخافت أزاحت الملاءتين المغطيتين للتمثالين وشرعت ترمق تعبيرات وجهى ..



لم يعلق (ميخائيل) .. وتقدمنا نحو قاعة فسيحة نوعًا تبد
وكأنها كانت الصالة فى هذا الكوخ ..

كان التمثال الأول يمثل رجلًا فى منتصف العمر يرتدى قلنسوة وله شارب كث ، وكان راكعًا على الأرض على ركبة واحدة يرمق فى ذهول واضح شيئًا ما على الأرض ... تمثال بالحجم الطبيعى ومتقن إلى حد أننى كدت أرى - فى الحجر - مسام جلده وشعيرات ذقنه غير الحليق ..

التمثال الثانى كان يمثل عجوزًا يرتدى ثياب النوم .. وقد جثا هو الآخر على كلتى ركبتيه .. وحنى رأسه ليرمق فى ذهول شيئًا ما على الأرض .. وكانت يده اليمنى مرفوعة قليلًا كأنها تزيح الستار عن شىء ما ...

تمثالان رائعان .. مريعان ، ولقد بديا فى ضوء المصباح المتراقص حولهما كأنما يتحركان .. وفى أعماقى تحرك ذلك الخوف الغامض غير المبرر الذى يحس به الناس تجاه التماثيل ... ذلك الخوف الغريزى الذى ينتاب كل طفل رضيع تُقرّب منه دُميه ... إنها النظرة الثابتة الموحية بالموت والموحية بالحياة فى نفس الوقت .. هى بيت القصيد ..

لكن ثمة حقيقة مؤكدة ..

أن هذه الملامح والثياب عصرية تمامًا .. ولا تمت للفن الاغريقى بصلة ..

★ ★ ★

ابتلعت ريقى .. وقلت لـ (ميخائيل) هامسًا دون أن أعرف لماذا أهمس :

- تماثيل متقنة .. لكنها ليست إغريقية أبدًا ..

ابتسم فى مرارة :

- أصبت .. هى ليست تماثيل إغريقية ..

قالت (تابيثا) وهى تعيد تمثال الفأر إلى مكانه :

- بل الأحرى أن تقول إنها إغريقية .. لكنها ليست تماثيل !!

لم أفهم فحوى هذه العبارة الغريبة .. لذا واصلت ملاحظاتى :

- لقد اختار ذلك النحات أوضاعًا عجيبة لتماثيله .. فأرًا يتلوى ألمًا ..

وراعيًا يونانيًا يجد شيئًا مفزعًا على الأرض .. وعجوزًا يبدو وكأنه كان يبحث عن الخُفّ تحت الفراش حين وجد الشيطان نفسه ..

- لقد قلتها ... وجد الشيطان تحت فراشه ..!

- لا أفهم ..

كان التمثالان يرسلان ظلالهما الغامضة الرهيبة على جدران الكوخ .. وكانت عينا (ميخائيل كاراداكس) الزرقاوان تلتمعان بالرعب .. و (تابيثا) تبلل شفتيها

بطرف لسانها فى توتر .. حين بدأت أتذكر أسطورة قديمة رهيبة سمعتها أو قرأتها يومًا ما .. هذان إذن ليسا تمثالين ..

وانتصبت الشعيرات فى مؤخرة عنقى .. لقد فهمت ..

- هل .. هل تعنى .. أنهما رأيا ..

- نعم ..

- رأيا رأس ..؟

- نعم .. رأيا رأس (ميدوسا) ..!

* * *



٥ ـ أين هـو ؟

كنا واقفين خارج الكوخ المشئوم فى ظلام الليل نلهث من الانفعال ..

وكان الزوجان يتكلمان ويتعاملان كأنهما يعيشان هذا الموقف للمرة الأولى .. فقد استعادا الفزع الأول المبكر كاملاً ... أما أنا فكانت مئات الأسئلة تصطرع فى ذهنى وكل منها يحاول السبق إلى طرف لسانى ، إلا أن تزاحمها جعلها تذوب حتى لم أعد أذكر شيئًا منها !..

إن معرفتى بـ (ميدوسا) سطحية جدًا لا تتجاوز معرفة أى طبيب بها .. علامة (رأس ميدوسا) التى تميز تليف الكبد وارتفاع ضغط الوريد البوابى ؛ حيث تتسع الأوردة البديلة المحيطة بصرّة المريض معطية ذلك المنظر الشبيه برأس (ميدوسا) والثعابين تخرج منه ..، وهو تشبيه (شاعرى) آخر من تلك التشبيهات التى تملأ كتب الطب واصطكها الأطباء الأوائل .. مثل علامة زهور السوسن .. وعلامة شجرة الشربين المقلوبة وعلامة عاصفة الثلج .. إلـخ ...

بدأ (كاراداكيس) يحكى لى أسطورة (ميــدوسا) الكابوسية بالتفصيل ..، وقال لى إنه لو أن (ميدوسا) وُجدت حقًا فإن موطنها ـ حتمًا ـ كان فى إحدى هذه الجزر الصغيرة الواقعة ما بين (كريت) و (رودس) ..

ثم إنه شرع يحكى لى ما حدث فى تلك الليلة الرهيبة .. ليلة الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٦ ...

ـ كان أستاذى (ستافروس تندرينوس) يواصل الحفر فى بعض المقابر الموجودة فى الكهوف المتاخمـة للشاطئ .. حين ...

منعًا للملل لن أعيد كتابة هذه القصة ثانية .. فأنتم قرأتموها فى الفصل الثانى .. لكن اسمحوا لى أنا أن أستمع إليها حيث إنها المرة الأولى لى كما تعلمون !..، والآن نأتى للجزء الجديد من القصة ..

ـ فى العاشرة مساءً سمعنا صرخة ..، صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل ..، وما أن خرجت من كوخى مع (تابيثا) حتى فهمت أنها صادرة من كوخ الأستاذ .. جرينا لهناك .. وكان بعض العمال قد سبقونا لدخول الكوخ عن طريق كسر الباب ..

وفى غرفة نومه وجدنا المشهد العجيب ..

فأران من الحجر أحدهما متهشم تمامًا (كأنه سقط من الجدار) على الأرض ..، وجوار الفراش ـ منحنيًا وراكعًا

كأنه يعاين شيئا ما ـ كان تمثال الأستاذ الذى رأيته أنت ..، وكان هناك كيس من الخيش بجواره على الأرض ليس به أى شىء !!..

لقد تذكر العمال الأسطورة على الفور قبل أن أتذكرها أنا ..، أما أنا فقد فتشت الكوخ أولًا بحثًا عن الأستاذ (الحقيقى) .. فلم أجده .. ثم هرعت إلى دفتر مذكراته .. وكان مفتوحًا على آخر صفحة كان يكتبها لحظة أن حدث ما حدث ..

كان يتحدث عن رأس (ميدوسا) .. وعن كارثة أصابت رئيس عماله (نيكوس) .. وعلى الفور أصدرت أوامرى بأن يستدعى بعضهم (ديمتريوس) رئيس شرطة الجزيرة ـ والشرطى الوحيد بها كذلك ـ وحملنا المشاعل أنا وآخرون إلى المقبرة المشئومة حيث وجدنا التمثال الآخر راكعًا على ركبة واحدة كما رأيته أنت .. واضح أنه كان يحفر حين خرج له الرأس من بين الصخور والأتربة ..

والآن .. إن خيوط القصة تتضح أكثر .. لقد وجد الأستاذ (ستافروس) ذلك الرأس وأخذه معه للكوخ ..، إلا أن الفئران أسقطت الشىء من كيسه تحت الفراش .. وحين نهض ليعيده نسى واجب الحذر وأصابته اللعنة .. لكن .. أين ذهب الرأس بعد هذا ؟!..

* * *

قلت لـ (ميخائيل) فى حيرة :

ـ ولكن لو افترضنا أن (ميدوسا) وُجدت فعلًا .. فكيف لم تتحلل بعد هذه القرون ..؟

قال وهو يفتح باب كوخنا :

ـ لقد فكرنا فى هذا ..، إن هناك شيئًا ما فى جوّ هذه الجزيرة أو تُربتها يحوّل الجثث إلى مومياوات ..، وليست هذه أول مرة نجد فيها جثة شبه سليمة برغم أنها تعود لما قبل عهد الميلاد .. لقد اعتدنا هذا هنا ..

قالت (تابيثا) فى ضجر :

ـ ثم إن القصة كلها غريبة ولا تخضع للمنطق ..

دلفنا إلى الكوخ الذى بدا لى بهيجًا جدًا ودافئًا بعد ما رأيناه فى الكوخ الآخر ..، وجلسنا حول مائدة الطعام نرمق لهيب المصباح المتراقص وكل منا شارد الذهن يفكر فى جانب من هذه القصة ..

ابتسم (ميخائيل) فى رقة .. وقال :

ـ يؤسفنى أننا أقحمناك فى هذه القصة على الفور .. لم يكد ينقضى اليوم حتى عرفت ما نعرفه نحن !..

ـ البوليس ..

ماذا ..؟

ـ البوليس .. ماذا كان تعليقه على كل هذا ..؟

نظر إلى أنامله مفكرًا .. ثم حدق في عيني :

ـ الواقع أن كلمة (بوليس) هى أكبر مما يجب ... فلا يوجد بهذه الجزيرة سوى (ديمتريوس بابادوبولوس) العجوز بربوه وشرود ذهنه وبندقيته العتيقة ، وهو لم يحاول أن يبلغ الأمر لرؤسائه حتى لا يتهموه بالخرف .. بل ترك لنا المسئولية كاملة ، ولهذا معنا مفاتيح الكوخ .. والتمثالان متروكان (لعهدتنا) إذا صح هذا التعبير ..

ـ وهل سمعتم صرخة العامل ..؟.. لم أعد أذكر اسمه ..

ـ (نيكوس) .. الواقع أن أحدا لم يسمعها ـ إن كان قد صرخ ـ سوى الأستاذ (ديندرينوس) .. كنت أنا و (تابيثا) في المقهى .. وكان العمال قد عادوا لديارهم منهكين ..

ثم تبادل نظرة مع زوجته .. وقال لها شيئًا ما باليونانية ... ثم نظر لى بعينيه الزرقاوين الحساستين (فيما بعد أدركت أن عينيه هاتين شديدتا الحساسية .. وأن انعكاس رعبه فيهما كان يكفى لإصابة من ينظر إليهما بالذعر هو نفسه) ..

ـ والآن أعتقد أنك ستسألنى عن المشكلة ..

ـ هذا أكيد ..

ـ لقد وجد الأستاذ (ديمتريوس) رأس (ميدوسا) ودفع ثمن اكتشافه غاليا .. ليس هو فقط بل و (نيكوس) وفأران لم يستطيعا كبح شراهتهما ..؛ والآن كان ينبغى أن نجد الرأس تحت الفراش .. لكننا لم نجده ..

إن لهذا معنى واحدا .. هناك من دخل الكوخ فى الدقائق التى تلت الصرخة ... وكان سريع البديهة بحيث فهم على الفور ما هنالك وكيف يحصل على الشيء ويخفيه قبل أن يأتى الآخرون ..

هنـــاك شخص ما فى هذه الجزيـــــرة يملك رأس (ميدوسا) ... وبالطبع هو ليس عاشقًا للآثار اليونانية ولا من هواة الثعابين وليس عضوًا فى جمعية أصدقاء (برسيوس) ..

أنه شخص يعرف خطورة هذا الشيء .. ويعرف كيف يستفيد منه ..

* * *

الليل .. والظلام .. والأحلام العجيبة ..

من أعماق إمبراطورية الظلام (هيدز) حيث يجلس (بلوتو) على عرشه يرمق الأرواح المعذبة .. و (شارون) مبعوث الجحيم يركب زورقه عبر مياه نهر (ستيكس) حاملًا دفعة أخرى من الموتى ..

(برسفونيه)(*) الحسناء تركض نحوى ... تتوسل

(*) تقول الأسطورة اليونانية إن (بلوتو) شعر بالملل .. فاختطف الحسناء (برسفونيه) لتكون زوجته فى مملكته المظلمة (هيدز) ، وهكذا حرمت الدنيا من الربيع الأبدى الذى كانت تبعثه (برسفونيه) .. فيما عدا ثلاثة شهور (فصل الربيع) حين يسمح لها بإجازة تزور فيها أقاربها وصديقاتها فى عالم النور .

إلى أن أنقذها ... ولكن كيف ؟!.. كيف أواجه أنا وحدى سلطان (بلوتو) الرهيب ؟! الكلب يذوب .. وتشرق الشمس .. لكني وحدي يا (برسفونيه) .. لقد أخذك لنفسه .. إن معى سيوفًا كثيرة وبندقية (ليزر) لا أدرى كيف جاءت في جعبتي .. ولكنها صالحة .. أنا أحب الزيتون، والأسماك الشهية التي لا أعرف اسمها .. و (تابيثا) سخريتها قاسية ...، كانت تداعب (ماجى) فلا تستطيع الرد وتحتشد الدموع فى مقلتيها .. أمـا أنت يا (برسفونيـه) .. كلا .. هذا ليس أنت ..!... لا ..!، ما هذه الثعابيـن فى شعـرك ولسانك المشقوق ..؟ أنت لست (برسفونيه) ..!.. أنت الجرجونة (ميدوسا) .. وأنا لم أعد (رفعت) .. أنا تمثال حجرى يصرخ ..

وتقلبت فى الفراش غارقًا فى العرق .. وابتلعت ريقى ...، أنا أعرف أن هذا كابوس .. وأن سببه هو أحداث اليوم وإفراطى فى العشاء ونومى على ظهرى .. لكنى لا أستطيع التقلب .. أنا مجرد تمثال حجرى .. لو تقلبت لانتهى كل هذا ..

والآن يجتمع الرئيس الأمريكي (جون كينيدى) مع (تيتو) و (زيوس) و (أورفيوس) لمناقشة هذا السؤال الخطير : ما نوع الأسماك التي أكلناها فى العشاء ..؟ لم يحضر (خورشوف) بسبب الحرب الباردة .. إلا أن (برسفونيه) ستكون زوجتى .. وستنظف الغبار من على تمثالى كل يوم ...، الآن أطمئن .. و ...

ثم لا شىء ..

* * *

فى الصباح شعرت وكأن قافلة من العربات الحربية بقيادة (رمسيس الثانى) قد مرت فوق جسدى .. وكان رأسي يترنح ، إلا أن ضوء الشمس البهيج أزال أشباح الليلة الماضية حتى أن ما قاله لى (ميخائيل) وما رأيته بدا لى مجرد كابوس آخر من كوابيس الليل .

وجلست على مائدة الإفطار مع الزوجين ألتهم الزيتون والجبن وأرشف اللبن الطازج شاعرًا أن اليوم سيكون حافلًا ..

ـ هل نمت جيدًا ..؟!

سألتنى (تابيثا) فى خبث ، على أننى لمحت تحت عينيها انتفاخات تشى بأن ليلتها لم تكن أفضل ..

طيلة الليل كان ثمة مؤتمر عجيب فى رأسى بين (جون كيندى) و (تيتو) و (زيوس) لمعرفة نوع السمك الذى أكلناه أمس .. والاتفاق على مهر (برسفونيه) زوجتى القادمة !

قالت (تابيثا) وهى تصب لى المزيد من اللبن :

ـ أنت أفضل حالًا منى ...، على الأقل كانت كوابيسك ذات موضوع .. أما أنا فقضيت ليلتى فى خلط لا رأس له ولا ذيل .. اشرب ...

قلت لـ (ميخائيل) وأنا أرشف اللبن تاركًا شاربًا أبيض على شفتى العليا :

ـ ثمة سؤال واحد يا (ميخائيل) بخصوص موضوعنا.. إذا كان هناك من وجد الرأس قبلنا .. فكيف دخل الكوخ ـ وأنت تقول إن الرجال اضطروا لكسر الباب ـ وكيف خرج منه ؟!..

ـ إن هناك نافذة كبيرة منخفضة في غرفة نوم الأستاذ وكانت مفتوحة بسبب الحر الشديد ... ربما دخل وخرج منها ذلك الشخص ... وعلى كل حال كانت هناك آثار أقدام شديدة الوضوح جوار النافذة ..

قالت (تابيثا) :

ـ ثمة جواب آخر .. هو أن أول من وصل للمشهد من الرجال كان وحده لثوان ، لكنها كانت كافية أن يطوح الرأس من النافذة ويتظاهر بالذهول بعدها ... فيما بعد يعود ليسترد الرأس ..

هذا صعب .. لا أصدق أن سرعة البديهة والانعكاس الشرطي يصلان لدى شخص ما إلى هذا الحد .. يدخل قبل الآخرين .. ويرى المشهد .. ويفهم .. ويأخذ حذره .. ويقرر .. فيخفي الرأس ... هذا ليس بشريًا ..

ـ على كل حال لا يوجد حل ثالث ..

قال (ميخائيل) وقد عادت عيناه الزرقاوان تبثان الهلع في روحي :

ـ ثمة حل رابع ..

ـ وما هو ..؟..

ـ أن تكون لهذه الرأس قدرة على التنقل ..!..، أن تكون هي نفسها كيانًا حيًا مستقلًا .. وهي الآن حرة في هذه الجزيرة !!

* * *



٦ ـ رعب فى الجزيرة ..

عوى الكلب مرتين مصدرًا تلك الزمجرة المنذرة بالويل .. ثم انقض علىّ دون سابق إنذار بمجرد أن أفلت من قبضة (تابيثا) على المقود .. شرعت أتظاهر بالرزانة والوقار مانعًا نفسى من البكاء كالأطفال أو الفرار كالأرانب ، لأنى أعرف أن هذا سيزيد الأمور سوءًا .. شرع يتشمم بنطلونى وجيوب سترتى .. ثم بدأ يدرك أننى لست بالخطر الداهم على صاحبيه ... وبدأ تدريجيًا يتناسى وجودى كلية ..

ـ (كوستاس) !.. تعال هنا ..!

صاحت به (تابيثا) بلهجة صارمة .. فتركنى ـ أخيرًا ـ وعاد لها فى تؤدة .. غريب أمر هذا الكلب الذى يجيد الإنجليزية ... إلا أننى كتمت ـ بصعوبة ـ ما يعتمل فى رأسى من خواطر حول المتعة التى يحصل عليها المرء من تربية هذا البير ..

ـ ماذا بك يا (رفعت) ؟.. كنت أحسبك رفيقًا بالحيوانات الضعيفة ..

ـ نعم .. الحيوانات الضعيفة .. الحيوانات التى قد تموت جوعًا لو لم نرفق بها .. أما هذا الوحش فلن يجوع أبدًا .. إنه سيفترس أول إنسان يكون أمامه عند شعوره بأولى علامات الجوع ..!.. لا مشكلة إذن ..



ثم انقض علىّ دون سابق إنذار بمجرد أن أفلت من قبضة (تابيثا) على المقود ..

قالت فى دلال ممزوج بالعتاب وهى تدعك أذنى (الببر) :

ـ لا تقل هذا عن عزيزى (كوستاس) .. إنه رابطتى الوحيدة (باسكتلندا) ..

وأضافت مبتسمة :

ـ كان اسمه (ماكسل) .. وكان الكلب الأثير عند أبى ..

ـ لهذا يفهم الإنجليزية إذن ..!

وتأملت الكلب قليلا .. ثم سألتها :

ـ لم أره أمس ..

ـ لم نرد أن نضايقك .. لذا حبسناه فى بيته ..

هنا خطرت لى فكرة .. لو أن هذا الوحش يجيد ربع ما تجيده الكلاب التى فى حجمه وتحترم نفسها .. فهو قادر إذن على تقفى الأثر بالشمّ .. لو أنه شمّ الكيس الخيشى الذى كانت به رأس (ميدوسا) فهو قادر على مسح الجزيرة كلها والعثور عليه ..

إنها الطريقة الوحيدة التى أعرفها للعثور على رأس مختفٍ ..

قلت لها فكرتى .. كنا واقفين على الشاطئ نرمق أمواج بحر (إيجه) المتسابقة لترتمى عند أقدامنا الحافية .. تفكرت حينا .. ثم بدت عليها علامات السرور ..

إنها فكرة لا بأس بها حقًا .. ولئن كان ذلك الشىء مختفيًا

فى كهف .. أو فى بيت .. أو فى باطن الأرض فهى تعرف أن (كوستاس) العزيز سيجده .. ولكن كيف لم تخطر لك هذه الفكرة البديهية من قبل يا (تابيثا) ؟..

ـ لأننا أغبياء يا عزيزى (رفعت) .. ولأنك عبقرى ..

قالتها فى سخرية واضحة .. لو أن أية امرأة أخرى فى العالم قالت لى هذه العبارة لامتلأت زهوًا .. لكنى تعلمت مع (تابيثا) أن أكون حذرًا ..

وعلى مرمى البصر كانت سفن الصيد العتيقة متراصة فوق رمال الشاطئ لتجف ، ومجموعة من الأطفال يلعبون .. وصياد عجوز يدخن (النارجيلة) التركية الشهيرة .. وبعض الشبان يعزفون على آلة وترية ما ، لا أعرفها .. سألتها :

ـ هل هذه هى (البوزوكى) ؟

ـ كلا .. هذه هى (السانتورى) .. ألم تقرأ تحفة (نيكوس كازنتزاكيس) (زوربا اليونانى) ؟!..

ـ فى الواقع .. نعم .. لم أقرأها ..

قالت وعيناها تضيقان انبهارًا :

ـ إنها آلة رائعة .. وترغمك إذا ما حاولت التعبير عن نغماتها أن ترقص رقصًا يونانيًا موقعًا .. إن كل آلة موسيقية عند كل شعب ترغمك على أن ترقص كأهلها ..

الطبول تجعلك ترقص كالأفارقة .. الناى والطبل يجعلانك ترقص رقصًا مصريًا ... الجيتار يجعلك ترقص كالأسبان .. لاحيلة لك فى ذلك لأن تكوين الآلة يسيطر على جهازك الحركى ويطبعه بطابعها ..

كنت أتأمل فى عبارتها حين وصل (ميخائيل) حاملًا سلة من القش اشتراها من بعض الصيادين وكانت مليئة بالأسماك ... ألقى بسمكة للوحش المدلل التهمها وهى فى الهواء بعد ... وفى فتور سألنا :

ـ تتحدثان عن (ميدوسا) ..؟

ـ كلا .. بل عن الآلات الوترية فى الحضارة الإغريقية ..!

قال كلمة يونانية ما ، واضح أنها تعادل كلمة (إحنا فى إيه والا إيه ؟) فى العربية ، ثم جلس على الرمال .. وشرع يدندن لحنًا حزينًا ... بدأت (تابيثا) تفتح مدفعها الرشاش عليه مطلقة سيلًا من العبارات اليونانية يتخللها اسمى واسم كلبها العزيز ـ ولا فخر ـ مما أكد لى أنها تخبره بفكرتى ..

نظر لى فى فهم .. وابتسم مؤيدًا ... ثم اقترح أن ننفذها هذا المساء حين يتكفل الظلام بإراحتنا من الأسئلة ..

* * *

وهكذا شرعنا ننفذ خطتنا الصغيرة .. عدنا إلى الكوخ وجعلنا الكلب يتشمم كيس الخيش الذى وجدوه جوار تمثال الأستاذ ... ثم أمسك (ميخائيل) بالمقود وشرع يحث السير خلف الكلب المتحمس .. كان المساء قد بدأ يدنو مرة أخرى ..

خرجنا من الكوخ وبدأنا السير عبر رمال الشاطئ؛ وسط النظرات الفضولية التى تقول بصراحة : ماذا دها هؤلاء المجانين ؟!... وبدأ الكلب يتحفز .. ثم دار حول مجموعة الكهوف المتاخمة للشاطئ؛ .. واختار أحدها ودخل ..

قربت (تابيثا) الكيس من أنفه بيد ترتجف لتتأكد من أن ذاكرته لم تضعف .. إلا أنه واصل السير بثقة إلى ما يشبه الفتحة فى جدار الكهف .. ودخل .. ونحن خلفه .. لكن الظلام كان دامسًا بالداخل ..

أشعلت قداحتى فأزالت العتمة قليلًا .. وعلى ضوئها المتراقص رأينا الكلب يحفر فى رقعة ما من الأرض وهو يزوم بتلك الطريقة المفزعة .. وكانت أذناه متصلبتين .. وشعر عنقه منتصبًا .. وذيله منتفشًا .. لقد أحس بها ..!..

قرب (ميخائيل) يده يحاول جذب المقود إلا أن الكلب كشر عن أنيابه وأصدر زمجرة منذرة فأبعد هذا يده فورًا ... همست (تابيثا) فى رهبة :

لا تحاول يا (ميخائيل) ..!.. سيعضك .. إنه ليس فى حالة طبيعية ..!

رهيب هو هذا المشهد .. والنظرة الزائغة المبهورة فى عينى الكلب .. و ... وهنا تداعى لخاطرى سؤال :

ـ هل هذا هو الكهف حيث .. حيث وقع الحادث ؟

ـ نعم هو .. ألم تفهم بعد ؟!

ـ لكن هذا يعنى أنه يشم أثر الرأس فى الأرض .. وليس الرأس نفسه ..

ـ لا أعتقد .. لابد أن الرائحة قد زالت الآن .. ولن تكون أقوى من الرائحة العالقة بالكيس نفسه ..

ـ وهذا يعنى ..

قال (ميخائيل) وهو يطفئ لهيب القداحة بأنفاسه :

ـ يعنى أن بقية (الشىء) موجودة هنا .. أو أن هناك رأسًا آخر تحت الأحجار .. أو أن هذه المقبرة خاصة بشقيقتى (ميدوسا) .. لا أدرى حقًا لكن الشىء المؤكد هو أن الوقت قد حان كى نغلق عيوننا ..!

* * *

وهكذا تركنا الكلب حيث هو وهرعنا متخبطين إلى كوخنا نبغى حماية لعيوننا ..، أتى (ميخائيل) بعصابتين للأعين من التى يضعها ذوو العيون الحساسة للضوء عند

النوم ؛ أما أنا فوجدت قطعتين من القطن صالحتين لأن أدسهما بين جفونى وزجاج النظارة .. ثم انطلقنا كالقذائف نبغى الوصول للكهف قبل أن نسمع ..

العواء ..!.. العواء المريع المتحشرج الذى كنا نخشى أن نسمعه ...، جرينا للكهف وصوت (تابيثا) تنهنه بالبكاء وهى تجرى جوارى وتردد مرارًا لا حصر لها :

ـ ما كان يجب أن ... ما كان يجب أن ....

وهنا ـ أمام الكهف ـ وجدنا حشدًا من السكان يقفون واجمين .. لم يجرؤ أحدهم على الدخول فى وكر الشيطان هذا ...، شققنا طريقنا .. وارتدى الزوجان القناعين، أما أنا فحشرت قطعتى القطن خلف الزجاج حتى لم أعد أرى أى شىء .. لربما كان إغماض عيوننا كافيًا لكن أحدًا لا يضمن لحظة شرود ذهن أو انعكاس لا إرادى يرغمنا على فتحها ..

وهنا بدأ سباق العميان ..

وسط صخور الكهف نزحف ونحبو نحو المكان الذى سجلته ذاكرتنا ..، وسمعت صوت (تابيثا) الملتاع يصرخ :

ـ إنه هنا !.. لقد وجدته ..!

مددت يدى تجاه صوتها فاصطدمت بشىء أملس وبارد .. حجر ... تحسسته فى رزانة .. الفم والأنياب والقدمين .. إنه تمثال كلب !.. لا شك فى ذلك ..

ـ يا عزيزى (كوستاس) .. أنا السبب .. أنا .. شرعت تنشج فى الظلام .. أكاد أراها وهى تحتضن التمثال المرعب محيطة عنقه بذراعيها ومسندة رأسها على كتفه ... لم يعد منها نفع بعد الآن .. أما (ميخائيل) فلم يكن عنده وقت لهذا السخف .. إذ سمعت صوته فى الظلام يهمس :

ـ ها هو ذا الرأس يا (رفعت) .. لقد وجدته ..!.. مد يدك نحوى ..

مددت يدى فاصطدمت بفتحة .. فتحة أنف .. تحتها شارب .. و ..

ـ ليس هنا أيها الأحمق !.. هذا أنفى ..!... أنزل يدك قليلًا .. لأسفل .. هكذا .. والآن ها هو ذا ..!.. هل تحس به ؟!..

فى الظلام أشعر به .. مستجمعًا كل حاسة (التقدير الفراغى) عندى أتحسسه .. الأنف المجدوع .. الفم ذا الأنياب الحادة .. ثم .. عشرات الأشياء الطويلة الملتفة حول الرأس ولا يمكن أن تكون سوى ثعابين ..

إنه هو ..

* * *

فتحت له الكيس فرفع الشىء وألقاه فيه وأحكمنا ربطه .. كانت رائحة الشىء قوية وأعتقد أن كل عطور العالم لم تكن قادرة على إزالتها من أيدينا ..

والآن يمكننا أن نخرج .. لم نزل العصابات من على أعيننا فمن أدرانا أننا لن نجد أمامنا رأسًا آخر خارجًا من التربة ..؟... حملت الكيس فى يدى .. وسمعت صوت ضجة فهمت منها أنهما يتعاونان على إخراج تمثال الكلب من المقبرة ..

والآن نشم هواء المساء المالح فنزيل عصاباتنا ..

أهالى الجزيرة يحيطون بنا يرمقوننا فى وجوم ... وعيونهم متصلبة على الكيس الذى أحمله وعلى تمثال الكلب الثقيل الذى تعاون الزوجان على حمله .. تمثال لكلب يحفر فى الأرض ويصرخ ... هذا الصمت الثقيل ينذر بشىء ما ..

بدأنا نشق طريقنا بين صفوفهم ... وفجأة برزت لنا امرأة عملاقة ترتدى السواد وشرعت تطلق علينا سيلًا من الكلمات اليونانية التى لا تمت للمجاملات بصلة حتمًا ... قالت لى (تابيثا) وهى تتشق لمنع دموعها من أن تسيل من فتحتى أنفها :

ـ إنها (ميليسا) .. زوجة (نيكوس) ..

- نعم .. نعم أرملة ذلك العامل .. هذا واضح ..

- إنها تقول إن الشؤم حل بالجزيرة منذ قدوم الشياطين .. شيطان المدينة والمرأة الأجنبية التى ترتدى البنطلون .. و ... هناك بعض الشتائم طبعًا لكنى لن أترجمها ، وتقول إن الشيطان الأصلع ذا النظارة قد جلب المزيد من الشؤم ..!

- لابد أنها تتحدث عنى ....

كانت المرأة صارمة الوجه .. وكان العرق واللعاب يتناثران من فمها وهى تشير للكيس ثم للرجال ... وتقول كلامًا كثيرًا ..

- إنها تقول إن (الشىء) سيجلب الشؤم علينا وعلى أولادنا .. وأن الرجال لو كانوا رجالاً حقًا لرموه فى البحر للأسماك ورمونا نحن أيضًا ..

وتواصل المرأة الصراخ فى حين جفت دموع (تابيثا) تمامًا والتمعت نظرة التحدى فى عينيها .. وواصلت الترجمة :

- إنها تقول : فليمزق ألف مخلب أحشاء من بذر البذرة التى منها نبتت الشجرة التى صنع كوخنا من خشبها ..!

شاعرية جدًا هذه اللغة اليونانية .. ذكرونى أن أتعلمها فيما بعد حين تتحسن الظروف .. أما الآن فالموقف لا يبشر الطمأنينة أبدًا ..

وهنا ثارت (تابيثا) وصاحت فى المرأة مطلقة بعض القذائف اليونانية شديدة الانفجار .. ردت المرأة بقنبلتين هيدروجينيتين .. وكانت (تابيثا) على وشك استعمال قنابل (النيوترون) حين اشتبكت معها المرأة بالضرب واللطم والصفعات والعضّ ..، هل شاهدت فى حياتك صراع قطين ؟.. هل تستطيع - لو جرؤت - أن تفصلهما ؟!..

هذا هو ما حدث وقتها ... (ميخائيل) و (أنا) من ناحية والرجال - الذين كانوا متعقلين غير ميالين للعنف - من ناحية أخرى .. الكل يحاول إنهاء صراع الديناصورين هذا ..

وقبل أن أفهم ما حدث اندفعت قبضة المرأة تلكمنى فى أنفى ، وانتزعت الكيس الخيشىّ من يدى .. وهى تسبنى بما لا أفهمه ..

لكن الكيس كان مهترئًا .. مهترئًا إلى درجة أنه لم يتحمل هذا الجذب !!

* * *

٧ ـ الشــىء ..

[ترى هل تألموا ؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا ؟!..]

★ ★ ★

[إنها إغريقية حقًا .. لكنها ليست تماثيل !]

★ ★ ★

تمزق الكيس .. ولمحت بطرف عينى شيئًا رماديًا بشعًا يبرز منه حيث سقط على الرمال ..

وكان رد فعل (ميخائيل) هو الأسرع إذ صاح باليونانية منذرًا .. ثم مزق أزرار قميصه وخلعه وألقاه ـ وهو يغمض عينيه ـ على الشىء .. ولفه فى القميص بإحكام وأمسك به ..

أما الرجال الذين احتبست أنفاسهم للحظات فقد تنفسوا الصعداء وعادوا يواصلون تخليص المرأتين .. وهنا برز عجوز له شارب كث أشيب .. وأسنان نخرة .. يحمل بندقية قديمة جدًا من القرن الماضى ، وكان يرتدى مثلهم تمامًا .. إلا أن طريقته المتغطرسة فى فض الشغب .. واللهجة الآمرة التى جعلتهم يتفرقون بها جعلتنى أدرك أنه هو رجل الشرطة فى هذه الجزيرة (لاأذكر ماذا كان اسمه

بالضبط فمنذ وصلت اليونان وأنا غارق فى دوامة لا تنتهى من حروف الواو والسين) ..

ـ (ديمتريوس بابادبولوس) ..!

قالتها المرأة وهى تطلق سراح (تابيثا) .. إذن كان هذا هو اسمه .. إنها تشكو له شيئًا ما ، وتطالبه بأن يتخذ إجراءً حاسمًا ؛ إلا أنه لم يبد مهتمًا بالأمر .. بل ولم يبد على استعداد لسماع أى شىء ..

وتفرق الواقفون على حين أخذت المرأة تلوح بقبضتها مهددة ..

قال الشرطى شيئًا ما لـ (ميخائيل) ، ثم نظر لى فى ريبة .. وانصرف ..

★ ★ ★

كان تمثال الكلب قد تهشم حين هوى على الأرض .. لهذا حملت (تابيثا) رأس التمثال ، وعدنا لكوخنا واجمين .. أنفى ينزف .. ووجه (تابيثا) ملىء بالخمشات .. و (ميخائيل) عارى الجذع يقبض على قميصه الملتف حول الشىء .. إنها لحظات كئيبة لكننا على الأقل سنعرف ...

سنعرف ..

★ ★ ★

وفى الكوخ وضعنا الكيس الكئيب على منضدة .. ثم أحضرت (تابيثا) صندوقًا خشبيًا له مفصلان يتيحان فتحه وغلقه .. وله قفل محكم ؛ ثم إنها أفرغت ما فى القميص وبقايا الكيس داخل الصندوق وهى تحول وجهها تجاه الحائط .. ثم خلعت ساعتها ..

والآن حان وقت البحث العلمى ..

أحضرت (كاميرا) ذات فلاش وثبتتها على حامل ... ثم أنها أحكمت تصويبها على الجانب الذى يُفتح من الصندوق .. وأدارت مفتاح التوقيت الذى يتيح التقاط صورة بعد لحظات، ثم هرعت خلف الصندوق بحيث لا ترى ما بداخله .. وفتحته أمام عدسة الكاميرا .. و .. بعد لحظات .. كليك !.. والآن تغلق الصندوق وتهرع للكاميرا لتستخرج الفيلم ...، وتقول :

- إن عندى هنا محاليل التحميض كلها .. انتظرانى ..

وكورت الفيلم فى قبضتها واندفعت إلى غرفتها ..

★ ★ ★

كنت جالسًا أنا و (ميخائيل) فقط .. لكن شعورًا مروّعًا كان يداهمنى أننا أربعة ..! الحضور القوى الذى لا يُنكر لـ (ميدوسا) فى صندوقها الخشبى .. ولرأس الكلب الصارخة حيث وضعتها (تابيثا) على المنضدة ...، قال (ميخائيل) فى شرود :



ثم هرعت خلف الصندوق بحيث لا ترى ما بداخله .. وفتحته أمام عدسة الكاميرا ..

- ما رأيك فى كل هذا ..؟

نظرت له .. ومددت يدى أشعل سيجارة .. كان منهمكًا فلم يستطع حتى أن يعترض :

- لا أصدق حرفًا ..!

قلتها ونفثت الدخـان ..، وأردفت أمـام عينيه المندهشتين :

- إن كل القصة مبنية على أساس وثنى هو أن (زيوس) كان له وجود .. وكلانا يعرف أنه لا (زيوس) .. ومادام لا (زيوس) فلا (ميدوسا) .. هذا حتمى ومنطقى جدًا ..

- أنا لا أتحدث عن (زيوس) .. لربما كان هناك كائن حقيقى اسمه (ميدوسا) له القدرة على تحويل الناس لحجر ، وحاول القدماء تفسير وجوده على هذا البصيص الوثنى ... هذا هو ما أعنيه ..

- ومتى وجد كائن يستطيع تحويل الناس لحجر ..؟!

- لماذا لانفترض أن هناك إشعاعات معينة محوّلة للمادة تخرج من عينيه .. مثل عمل (المدافع النووية) التى تحول عنصرًا لآخر بقذف البروتونات .. هل تنكر عمل (رونز فورد) فى هذا الصدد ..؟

ضحكت فى سخرية أثارت حنقه حتى سألنى فى ضيق عما يضحكنى ، فقلت :

- إنها تلك المحاولة المفتعلة لإكساب الخرافات ثوبًا علميًا ..، محاولة تفسير الطالع - مثلًا - باستخدام قوانين (نيوتن) .. أنا أومن بالسحر لأن الأديان السماوية أجمعت على وجوده ، لكنى لا أومن برأس (ميدوسا) لأنه يناقض ما أعرفه دينيًا وعلميًا .. ولم أسمع عن كائن حىّ تعمل عيناه (كمدفع نووى) ..

- وكل هذا الذى يحدث وحدث ..؟

فكرت حينًا .. ثم قلت شارد الذهن :

- لا أعرف .. هناك تفسير ما يمكن ابتلاعه .. لكن لاتحدثنى أبدًا عن لغة (زيوس) ثم تحاول أن تبنى على تلك صرحًا محكمًا من المنطق ..

- على كل حال سترينا الصورة كنه هذا الشىء ..

* * *

عادت (تابيثا) من غرفة التحميض ممسكة بصورة لم تزل مبتلة بين أناملها ..

- ما هى الأخبار ..؟

قالت وهى تبعد الصورة عن متناول يدنا وترتدى ساعتها وخاتمها :

ـ لا أعرف .. بمجرد أن بدأت النسخة الإيجابية تتضح لي ؛ كففت عن النظر .. لن أجازف ..

قلت لها مبتسمًا :

ـ ولماذا ؟.. هي مجرد صورة .. إن صورة باكتريا الطاعون لا تسبب الطاعون ..

ـ لا أجزم بشيء ... إن الأمر كله خارق للطبيعة ، ولربما كانت هناك إشعاعات ما يتشرّبها الفيلم وتعكسها الصورة ..

هذا حق ... والواقع أن حذرها قد راق لي ..! ، والآن أعيد خواطري القديمة عن (فلسفة الخوف) .. برغم ثقتي في أن الأمر كله خرافة .. وبرغم ما قلته لـ (ميخائيل) منذ دقائق وكل عباراتي المنطقية المحكمة فإنني لن أجرؤ أبدًا على إخراج هذا الشيء من صندوقه ولا على مجرد النظر لصورته !!.. إنني لا أومن بتاتًا بوجود مصاصي دماء لكني ـ حتى هذه اللحظة ـ أجذب الملاءة حتى قمة رأسي لأحجب أوردة عنقي عند النوم .. أعترف بهذا .. الخوف غير المبرر .. الذعر .. الهلع الحيواني .. هذا هو ما لم أفهمه بعد ..

والآن تتجه (تابيثا) إلى إحدى غرف الكوخ ، وتعود حاملة قفصًا فيه عصفور زينة رقيق ..، وتحمل الصورة وتقربها من ذلك السجين .. فيرمقها في براءة ولا يتحول إلى صخر ..

وهكذا كانت تلك هي الإشارة لنا كي ننقض على الصورة كي نشاهد ـ لأول مرة ـ كيف يبدو هذا الكابوس ..

* * *

كانت الصورة بالأبيض والأسود تمثل صندوقًا تمسك به يدا امرأة ترتدي خاتمًا (تابيثا) طبعًا ، وبداخل الصندوق كان ثمة وجه .. أبشع وجه رأيته في حياتي حتى أنه ليشابه وجه قرد ... الأنياب تبرز من شفتيه .. والتجاعيد تملأ ما حول شفتيه وركني عينيه .. والعينان جاحظتان شاخصتان ..

أما الشعر فلم يكن شعرًا .. كانت مئات الأفاعي تلتف حول نفسها وتنحدر على الجبين ... أما الجلد فكان مهترئًا متسلخًا ..

قلت مبتلعًا ريقي :

ـ من المؤكد أن الكثيرين من الخُطّاب لم يتقدموا لطلب يدها ..!

ـ ماذا تقول ..؟

ـ لا عليك يا (ميخائيل) .. لقد كنت أمزح ..

كان الزوجان ينظران للصورة مسحورين وقد فقدا النطق تقريبًا .. إن هذا الذي نراه الآن يتحدى كل منطق لدينا ... منذ سنوات عشر وقفت أمام مومياء (دراكيولا) ذات الأنياب شاعرًا بنفس الحيرة وعدم الفهم ... وتبلد

فكرى على هذا النحو حين أخرج وحش (لوخ نس) عنقه الطويل من تحت الماء ... وارتجفت ساقاى هكذا حين سقطت تحت المذءوب فوق الثلوج وشعر صدره الكث يلتصق بفمى وصوت خواره يصمّ أذنى .. لكنى - ودائمًا - كنت أجد تفسيرًا أرتاح إليه ..

فما هو تفسير هذا الذى أراه الآن ..؟!

* * *

قالت (تابيثا) وهى ترتجف ونحن جالسون فى المطبخ نتبادل النظرات الحائرة :

- ترى هل كان الرأس الأول بهذه البشاعة ..؟

- رأس أول ..؟

- بالطبع ... كان هناك رأس وجده الأستاذ وسُرق .. الآن لابد أن هذا رأس ثان !!..

هذا منطقى.. إذ كيف عاد الرأس لمقبرتـه مرة أخرى..؟!.. فلنرتب أفكارنا يا رفاق ودعونا لا نفقد صوابنا.. ما هى الاحتمالات ؟!

الاحتمال الأول - تقول (تابيثا) - أن هذه هى جزيرة (الجرجونات الثلاث) نفسها .. وبالتالى يكون هناك رأسان حقًا ... وبالتالى فإن هذين الرأسين يخصان شقيقتى (ميدوسا) اللتين قتلهما شخص ما فى زمن لاحق لزمن الأسطورة .. ومعنى هذا أن رأس (ميدوسا) نفسها ما زال مفقودًا ..

الاحتمال الثانى - يقول (ميخائيل) - أن هذه هى جزيرة (كاسيوبيا) وأن المقبرة هى مقبرة (برسيوس) نفسه حيث دفنوا الرأس معه .. وبالتالى فإن هناك احتمالين :

١ - أن يكون سارق الرأس قد أعاده لهذه الحفرة علمًا منه بخطره .. وهذا يضع أرملة (نيكوس) على رأس قائمة المشتبه فيهم ..

٢ - أن يكون الرأس مسحورًا وله قدرة ذاتية على التحرك ..!

الاحتمال الثالث - أقول أنا - أن تكون كل هذه ألعوبة مدبرة من الأستاذ مع رئيس عماله طلبًا للشهرة خاصة وأنتما تقولان إنه عاش مغمورًا ..

هل يوجد احتمال رابع ..؟!، لم يبد على أحدنا أنه يملك ما يضيفه ..

إننا نملك عدة محاور نتحرك عليها..

أولاً : عليك يا (ميخائيل) أن تتفحص المقبرة بدقة متناهية أملاً فى أن تجد ما يدل على صاحبها ..

- إنها مهمة صعبة .. فالفراعنة كانوا يحبون الثرثرة ويكتبون كل شىء عن صاحب القبر على الجدران ، أما الإغريق فكانوا يكتفون ببعض الرسوم غالبًا ..

ثانيًا : علينا أن نتقصى أمر كل من دخل الكوخ بعد أن صرخ الأستاذ فى تلك الليلة .. من دخل بعد من .. وماذا فعل ..

ثالثا : يجب أن نسلم الرأس للسلطات ... إن العلم ـ بصرامته القاسية ـ هو الذى سيثبت أو ينفى حقيقة هذا الشيء ..

رابعا : يجب أن نواصل الحفر في التربة .. لربما وجدنا جسدى الجرجونتين الباقيتين .. أو سيف (برسيوس) أو أى شيء من هذا الهراء يساعدنا على الفهم ..

ـ سنعتمد على أنفسنا فى هذا الجزء لأن هؤلاء العمال سيذبحوننا قبل أن نطلب منهم دخول المقبرة ..

خامسا : يجب إحكام غلق هذا الصندوق وإخفائه لأن محاولات عديدة ستتم لسرقته والتخلص منه .. أو ربما لسرقته والاستفادة منه ... إن من يملك رأس (ميدوسا) يمكنه أن يواجه جيشا دون خوف ... يقتحم البنوك .. يواجه الشرطة .. عالما أن من يفتح عينيه ليراه سيتحول إلى حجر ..!

* * *

والآن ـ وقد رتبنا خواطرنا ـ حان وقت النوم ..

المشكلة هى أن الرأس يجب أن يبيت فى غرفة أحدنا للتأكد من أنه لن يسرق ... نظرت لـ (ميخائيل) فى ترقب .. فصاح فى جزع :

ـ لا يا سيدى ..!.. لا تنظر إلىّ ..

ـ ولم لا ..؟

ـ لأننى أومن أن هذا الرأس يتحرك فلن آخذه لينام معى !

ـ ولكن ..

قالت (تابيثا) وقد التمعت نظرة التحدى الساخرة فى عينيها :

ـ ولماذا لا تأخذه أنت ؟.. ألست ترى الأمر كله ألعوبة ؟!!

ـ بلى .. ولـ .. ولكن ..

ـ حسن .. أنت شجاع حقا يا (رفعت) ، أما أنا وزوجى ففأران مذعوران ..

ـ لـ .. لا .. أ ... أعنى ..

ـ إذن قضى الأمر .. عمت مساءً .. ولا تنس مسح الدم من تحت أنفك !..

وهكذا وجدت نفسى داخلا حجرتى حاملا الصندوق الخشبى يترجرج ما به من حمل ..!.. مشكلتى هى عدم قدرتى على أن أقول لا بصوت مسموع .. ستكون ليلة طويلة حقا ..!!

* * *

٨ ـ ليلة الرُعب ..

عقارب الساعة تدق ..

الظلام الدامس يغمر الحجرة ..، والصندوق الكئيب ملتفًا بالسواد يغفو فوق منضدة فى ركن المكان ..، المشكلة هى أن هناك ضوءًا خافتًا لا أدرى مصدره يضيء الغرفة باعثًا آلاف الظلال وآلاف الاحتمالات ..، هو ليس ذلك الظلام الأملس المسطح الذى أرتاح إليه ..

[هنـــاك شخص فى هذه الجزيـــرة يملك رأس (ميدوسا)] ..

[ترى هل تألموا ..؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟] ..

[لا تحاول يا (ميخائيل) .. سيعضك .. إنه ليس فى حالة طبيعية] ..

[الشيطـــان ذو النظـــارة قد جلب المزيـــد من النحس ..] ..

هل حدث كل هذا فى يوم واحد ؟!.. كأنه دهر ..، أنا مُرهق .. لكننى ـ كما تقول القصيدة الإنجليزية ـ ما زالت لدىّ أميال يجب أن أقطعها ومواعيد يجب أن أحفظها قبل أن أنام ..

لم الخوف ؟.. ألست واثقًا من منطقك العلمى ؟.. لم لا تنهض وتضيء نور المصباح وتفتح الصندوق لتتأمل هذه السخافة عن كثب ؟!.. لكنك جبان يا د . (رفــعت) .. جبان ..، كنت دائمًا تعزى نفسك عن ضعفك بامتلاكك العقل الراجح والشجاعة .. والآن ها هو ذا الاختبار الأعظم لعقلك وشجاعتك ..، افتح الصندوق ما دمت لا تؤمن بالأسطورة .. هيا ..!

* * *

كان العرق البارد ينحدر على جبينى .. والصراع فى روحى قد بلغ الذروة .. نهضت فى تثاقل من الفراش .. واتجهت إلى مصباح الكيروسين وأشعلته ..، ثم اتجهت نحو الصندوق .. قلبى يخفق كالطبل فى أذنى .. ودمى يفور .. تحركى يا يدى .. أنت ملكى ويجب أن تمتثلى لإرادتى ..

لا تفعل !.. بربك لا تفعل ..!

حاستى السادسة تصرخ مهيبة بى أن أتراجع .. يدى تتردد .. ثم تتقدم .. أرجوك !!..

هكذا .. أعالج القفل ..، الباب الخشبى .. لم تزل هناك فرصة للتراجع .. لكنى لن أعود أدراجى أبدًا .. هيًا يا يدى ..

واتفتح الصندوق ..

وبيد ترتجف .. رفعتُ المصباح ليضىء ما بداخله ..

★ ★ ★

لم يكن هناك شىء ..!

بمعنى أدق .. لم يكن هناك رأس ... وللمزيد من الدقة كان هناك رأس لكنه ليس رأس (ميدوسا) ... بل رأس الكلب الحجرية التى عادت بها (تابيثا) من المقبرة ..!!..

أين ذهب هذا الشىء ؟..

وغلى الدم فى عروقى .. إن هناك من يحاول أن يجعلنى أحمق ... هذان الزوجان اللعينان يمارسان ألعوبة ما .. ولكن متى وكيف ؟.. لقد ظل الصندوق أمامى طيلة الأمسية .. لم يدخله شىء ولم يخرج منه شىء ... لقد دخلنا المطبخ وتركناه وراءنا دقائق .. لكن كلا الزوجين لم يغب عن بصرى ثانية واحدة ..

والآن ـ وأنا واقف أرمق الصندوق فى غباء ـ بدأ التفسير الوحيد لكل هذا يتراءى لى بوضوح تام .. (برغم أن كل خلية فى عقلى ترفضه) .

هذا الرأس يملك القدرة الذاتية على الحركة !

★ ★ ★



لم يكن هناك رأس .. وللمزيد من الدقة كان هناك رأس لكنه ليس رأس (ميدوسا) ..

وهكذا تناسيت حذرى وشرعت أفتش الحجرة فى عصبية بالغة .. لا أعتقد أن هناك من بحث عن رأس بهذه الدقة والحماسة فى التاريخ .. لا شىء ..

خرجت من الحجرة .. وأنا أحمل المصباح فى كفى ... وقرعت باب حجرة الزوجين دون كياسة كأننى شرطى يقرع باب مجرم ... انفتح الباب وبرز لى (ميخائيل) مذعورًا وخلفه (تابيثا) تضمّ الروب حول جسدها ..

كان الرعب قد بدأ ينطلق من عينيه حتى قبل أن أحكى شيئًا .. هاتين العينين اللعينتين !... ما إن ترى الرعب فيهما حتى يقتلك الرعب أنت نفسك .. هذا نوع آخر من الخوف .. أن ترى الخوف فى عيون الآخرين حتى دون أن تفهم ما الذى أفزعهم ..

- الرأس .. اختفى ..

- ماذا ..؟

أشرت بيدى فى حركة توحى بالهباء :

- لا رأس ..

هل جننت ؟!

قالت (تابيثا) فى رزانة :

- لحظة يا (رفعت) .. تقول إن الرأس اختفى .. وأنت لم تغفل عنه لحظة .. أليس كذلك ؟..

- بلى ... لقد فتحت الصندوق فلم أجد سوى رأس الكلب الحجرى ..

نظر لها زوجها نظرة معناها (ألم أقل لك ؟) ... ثم شرع يمارس ذلك العمل الأحمق الذى لا بد أن يمارسه .. تفتيش الكوخ دون جدوى طبعًا .. لا دخلاء .. لا نوافذ مفتوحة .. لا رءوس ..

لقد طار الشىء والله - تعالى - يعلم أين وكيف اختفى ..

- والآن ..؟!

- أعتقد أن من الأفضل أن نواصل النوم .. لا يوجد ما يمكن عمله فى هذا الظلام .. ثم إن البحث عن هذا الشىء خطر جدًا ... إن العثور عليه فجأة سيتسبب فى مأساة ... ولربما كان من الحكمة إطفاء هذا المصباح ..

ارتجفت (تابيثا) .. وضوء المصباح يعكس ظلال وجنتيها على عينيها مما أكسبها مظهرًا شيطانيًا .. وهمست :

- بالفعل .. إن النوم هو السبيل الوحيد المؤكد لإغلاق أعيننا ..

ودون أى اتفاق ودون أية كلمة أخرى تصرفنا بالطريقة الوحيدة المثالية لهذه الظروف .. حمل كل منا مرتبته إلى الصالة وكومنا المراتب فى دائرة ... إن الفكرة التى دارت فى أذهاننا فى نفس اللحظة هى قضاء الليل معًا ..

سيكون هذا ـ حتمًا ـ أكثر أمنًا ..

ـ أتمنى لكما أحلامًا سعيدة ..!

هكذا قلت وأنا أمدد جسدى على المرتبة فسمعت ـ فى نفس الوقت تقريبًا ـ سبة إنجليزية من (تابيثا) وسبة إغريقية من زوجها ..

مشكلتى هى أننى مهذب مهما ساءت الظروف ..!

* * *

هل أشرق الصباح ؟..

بالطبع لا ... إن هذه الليلة لن تنتهى أبدًا ..

والآن يزداد الأمر سوءًا إذا عرفنا أن (كاراداكيس) يتكلم فى أثناء النوم، وهو يعانى كابوسًا مروعًا فى هذه اللحظات ... إنه يصرخ .. ويتوسل باليونانية .. ويهمس .. ثم يصرخ ..

كيف لاتسمع هذه الحمقاء كل هذا الضجيج ؟!..

والآن أنا بين خيارين .. إما أن أوقظه وإما أن أخنق أنفاسه للأبد بوسادتى ... تحركت على ركبتى حتى وصلت جواره وشرعت أهزه فى غلظة كأننى (أخضُ) قربة من اللبن ..

ـ (كاراداكيس) .. نم على جنبك ... هيا !..

شرع يهرف بكلام كثير لا أول له ولا آخر .. ثم تقلب .. هدأ أخيرًا ..

والآن أعود لمرتبتى لأواصل الأرق ..

* * *

لم أستطع النوم أكثر ولم أستطع الرقاد ..

نهضت من الفراش العشوائى .. ومضيت أذرع الصالة وسط الظلام الدامس متأملًا لاشىء ..

أريد بعض الهواء النقى .. وأن أرى نجوم الليل البريئة فى عالمها الساحر بعيدًا عن كل هذه السخافات ..

اتجهت لباب الكوخ وتحسست المزلاج حتى وجدته .. فتحته .. وانسبت إلى خارج المكان ... أغلقت الباب خلفى نصف إغلاق لأنى لن أبتعد كثيرًا ..

أشعلت سيجارة وشرعت أجذب دخانها فى صدرى شاعرًا بالدوار الناجم عن دخول هذا السم إلى رئتين لم يدخلهما منذ ست ساعات ..

الجزيرة غافية ملتفة فى الظلام، والساعة تقترب من الثالثة فجرًا .. ولربما كنت أنا الوحيد المتيقظ فى هذا العالم .. أنا والنجوم .. و ..

هل أنا أحلم ..؟..

لا ... هذا واقع ... هذا الضوء الخافت الضعيف القادم من إحدى نوافذ كوخ الأستاذ (ستافروس ديندرينوس) .. إنه حقيقى ... ليس مزاحًا وليس خيالًا .. الكوخ المغلق منذ شهور والذى لم يدخله أحد منذ تلك الليلة الرهيبة ... هذا الضوء ليس انعكاسًا لضوء آخر لأنه ببساطة لا يوجد ضوء آخر ..

تدفق هرمون (الأدرنيالين) في عروقي مرهفًا كل حواسي، جاعلًا مني شيئًا أقرب لقط متحفز ... إن هناك سرًا ما ويجب أن أعرفه .. هي مجرد نظرة من إحدى النوافذ ستكون كافية لتفسير كل شيء ... ولكن هناك شرطًا واحدًا هو ألا يتوقف قلبي عن الخفقان وأن تطيعني قدماي اللتان تحولتا إلى قالبين من (الجيلي) يهتزان ويأبيان أن يتماسكا ..

هيًا .. هيًا .. وببطء شديد ..

* * *

الكوخ الكئيب ..

ببطء أدور حوله متحسسًا موطئ قدمي بين الرمال .. صوت البحر الثائر من بعيد .. ورائحة الأخشاب المكسوة بالطحالب، ومذاق التوتر في فمي ..

والآن هذه هي النافذة المختارة ..

أخذت شهيقًا عميقًا وقربت وجهي من الزجاج وشرعت أتأمل ..

كانت النافذة مطلة على القاعة الفسيحة التي وجدت بها التمثالين ليلة وصلت للجزيرة .. وفي الضوء الخافت المبهم استطعت أن أرى التمثالين في وضعيهما الغريبين كما رأيتهما أول مرة .. هنالك بجوار الحائط ينظران إلى ذلك الشيء المروع على الأرض .. و ...

[ترى هل تألموا ؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا، فلماذا صرخوا ؟] ..

[في العاشرة مساءً سمعنا صرخة .. صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل] ..

وهنا إزداد توتري ..

لقد ماتا وهما يصرخان ... هكذا قال الشهود أو هكذا قال (ميخائيل كاراداكيس) ... إذا كان هذا صحيحًا فلماذا لا يصرخ أي تمثال فيهما ؟.. الفم مغلق ونظرة رعب في العينين فقط .. لاشيء سوى هذا ..

وعلى الأرض كان هناك تمثال مهشم لم أره من قبل ... أمعنت النظرة فأدركت أنه بقايا تمثال الكلب .. من جلبه ها هنا ؟!.. لقد تركناه على الشاطئ بعد المشاجرة واكتفت (تابيثا) برأسه كتذكار ... فمن جمع البقايا وجلبها ها هنا ؟.. لابد أنه الشرطي العجوز (بابادوبولوس) قد جاء به ليضمه لمجموعة (المتحجرين) ... وحتمًا هو من أشعل المصباح ونسيه جوار التمثالين ... نعم .. لايوجد تفسير آخر ..

* * *

كنت منحنيًا على الزجاج غارقًا في التفكير ... تاركًا ظهري مكشوفًا .. وناسيًا باب كوخنا نصف مفتوح وبداخله يغط الزوجان في النوم .. كان هذا إهمالًا شديدًا .. إهمالًا لا يمكن الاعتذار عنه ..

هل تعرف السبب ..؟!!..

٩ - الغيوم تحتشد ..

حين هوت الضربة على مؤخرة رأسي عرفت أي أحمق كنته ..

وقبل أن أفقد الوعي أدركت أنني بعد ثوان سأكون تحت رحمة ذلك الذي هاجمني تمامًا .. أنا والزوجان البائسان النائمان في الكوخ ..

ثم ...

* * *

حين فتحت عيني كنت راقدًا في فراشي وضوء الشمس البهيج يفترش الملاءة، وكان وجه مألوف يتفرس فيّ بنفاد صبر واضح .. كان وجه ذلك الشرطي العجوز الذي فض الشغب أمس ..

ولم أكن في حاجة للمزيد من الأسئلة لأن القصة لاتحتاج لتفسير .. لكن أين الزوجان ؟.. ولحسن الحظ وفرت عليّ (تابيثا) المزيد من التوتر حين دخلت الغرفة حاملة كوبًا من الحليب .. وكانت كدمات عديدة منتشرة على وجهها المتورم .. وخلفها دخل (ميخائيل) ووجهه في حالة أسوأ .. وكانت قبضة يده ملفوفة بالشاش حتى المعصم ..

- هل أفقت يا (رفعت) ؟..

قالتها (تابيثا) في مودة .. وقدمت لي كوب الحليب وهي تعينني على النهوض ..

- أعتقد أن الأمر لم يكن فقدان وعي كاملًا .. لقد بدأ كفقدان وعي ثم إنك واصلت نومك الهادئ بعدها ..!

- ماذا حدث ؟..

- اعتداء .. لقد داهموا الكوخ ليلًا .. ضربوك .. وأيقظونا أنا و (ميخائيل) محاولين إجبارنا على البوح بمكان الرأس .. ولم يكونوا على استعداد لتصديق أنه اختفى .. ضربونا ضربًا مبرحًا ، وقلبوا الكوخ رأسًا على عقب .. ثم ولوا الأدبار ..

- ومن هم ..؟..

- كانوا ملثمين للأسف ..

أعدت رأسي للخلف، وناولتها كوب اللبن هامسًا بالعربية :

- يا لي من مغفل !!

* * *

لم يحاول أحد الزوجين أن يلومني على إهمالي في إغلاق باب الكوخ البارحة لأن جميعنا كان يعلم أن المعتدين كانوا سيقتحمون الكوخ عنوة على كل حال ..،

لكن الأسئلة التى طرحناها ظلت معلقة : أين ذهب الرأس ؟.. من سرقه فى المرة الأولى ؟ ومن سرقه فى المرة الثانية ؟.. أما السؤال عن شخصية المعتدين فلم يضايقنا كثيرًا .. إنهم ـ ببساطة ـ سكان القرية ..!.. هذه هى الاجابة وهى كافية جدًا على ما أظن ..

وفى الصباح فعلنا الشىء الوحيد الممكن : توجهنا إلى المقبرة حاملين أدوات الحفر وشرعت أنا والزوج نستكمل الحفر .. فى حين شرعت (تابيثا) تلتقط صورًا مقربة للكتابات النادرة على جدران المقبرة ..

أكثر من مرة شعرت بوهج الفلاش يلتمع فى اتجاهى .. فنظرت لها متسائلاً ، فصاحت فى مرح دون أن ترفع الكاميرا عن عينها :

ـ إنها صور نادرة لك غارقًا فى الغبار والعرق .. ولن أفوّتها ..!!

فى هذه اللحظة هوى (ميخائيل) بالرفش على طرف حذائى ؛ فصرخت من الألم .. فى ثوان التمع وهج الفلاش ؛ وانفجرت (تابيثا) ضاحكة هى وزوجها من هذه الدعابة (الظريفة) ..

ـ والآن ها هى ذى صورة لك وأنت تعوى كالذئب !!..

ـ أنتما مخبولان حقًا !!

واصلنا الحفر .. وأكوام التربة تتزايد فى إهمال على جوانب الكهف ..، وقد شعر كلٌ منا أن محاولتنا خرقاء ... و ... لحظة !..

ثمة شىء ما .. هل تشعر به ؟.. نعم .. تعال .. مدّ يدك ها هنا وأغمض عينيك .. ها هو ذا .. هل رأيت ؟.. أعنى هل شعرت به ؟.. إنها كف من النحاس !.. كف مخلبية متقلصة من النحاس !!..

والآن نجد الكف الأخرى ..

هل نفتح عيوننا ؟.. لا بأس .. لا أظن أن كفّىْ (ميدوسا) خطرتان كوجهها .. وفى افتتان نقف لنرمق هاتين القطعتين الفنيتين البديعتين الرهيبتين ..، كفين متقلصتين من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من غبار السنين وعوامل الأكسدة ..

قال (ميخائيل) وهو يلهث .. ويرتجف انفعالاً :

ـ أظن أن هذا يؤيد ـ تمامًا ـ نظرية (تابيثا) .. هذه هى جزيرة (الجرجونات الثلاث) ..، والرأس أو الرأسان اللذان وجدناهما لا يخصان (ميدوسا) بل الأختين شقيقتيها ..!

ـ هذا منطقى .. إن (برسيوس) لم يقتطع يدى (ميدوسا) أبدًا .. أو على الأقل لم تذكر الأسطورة ذلك ..



كفين متقلصين من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من غبار السنين وعوامل الأكسدة ..

وهنا فطنت إلى شيء لم أفطن إليه من قبل ... شيء كان كفيلًا ـ لو أننى أكثر ذكاءً ـ أن يغير كل شيء ويوفر علىّ متاعب لا حصر لها ... ولأننى واثق من ذكاء القارئ فلن أذكر هذا الشيء الآن حتى لا أقتل القصة قتلًا ..

حين تعود لدارك بعد منتصف الليل .. وأنت واثق أنه لا أحد بالداخل ، وتجد الباب مفتوحًا .. والأنوار مضاءة .. ثم ـ برغم ذلك ـ لا تستخلص أية نتائج .. وتدخل الشقة لتجد لصًا ..! عندئذ تلوم نفسك ، لماذا لم تستنتج هذه النتيجة البديهية ؟!! لأنك ـ ببساطة ـ لم تتوقع أن يحدث هذا لك أنت بالذات ..

هذا هو أدق وصف لموقفى لحظتها ..

وللمرة المليون أكرّر .. لم أدرك أى أحمق كنته !..

* * *

وفى كوخنا جلسنا نتأمل الصور بعد أن أخرجتها (تابيثا) من المحلول المثبت .. كانت هناك عدة صور لى تظهرنى منهمكًا فى الحفر كالفئران أو صارخًا كالمعتوهين .. ثم صور عديدة للرسوم التى كانت تملأ الجدران ..

مضى (ميخائيل) يتأمل الصور فى اهتمام وجبينه يتجعد رويدًا رويدًا مما دلنى على مدى التركيز الذى يعانيه ... ثم همس وهو يداعب شفته السفلى بالحافة الحادة لإحدى الصور :

- لاشيء يدل على أن هذا قبر شقيقتي (ميدوسا) .. لكننا على الأقل نعرف ذلك ..

أمسكت بإحدى الكفين النحاسيتين ، وقلّبتها متأملاً :

- إنني أتساءل كيف كانت امرأة رقيقة تمارس حياتها بهاتين الكفين ؟

- إنهما بالتأكيد لم يسهلا لها الطهي أو أشغال (التريكو) ..!

هذا صحيح .. لايوجد مفصل واحد ..

قالت (تابيثا) وهي تصبّ لنا بعض القهوة :

- على كل حال .. لقد انتهت القضية .. ، لايوجد رأس .. ولم يثبت لنا شيء واحد .. إنه الوقت المناسب لإغلاق هذه الصفحة وإبلاغ السلطات في (أثينا) ..

نظر لها (ميخائيل) في عصبية .. وشرع يتكلم باليونانية في توتر وحماس ..

وعيناه تلتمعان بغشاوة دموع ناجمة عن الغضب ..

وضعت (تابيثا) كفها على كفه مواسية .. أما هو فشرع يردد لفظة يونانية ما .. ، يجب أن أتعلم اليونانية .. يجب .. ، (تابيثا) تقرب وجهها من أذنه وتقول شيئًا ما .. ثم تلتفت لي لتشرح ما هنالك :

- إن (ميخائيل) .. يرى أن هذا الكشف قضية عمره .. ، ويرى أنها فرصته الوحيدة - ربما الأخيرة - ليغدو عالم آثار مرموقًا ويفلت من مستنقع العلماء المجهولين .. ،

إنه يقول إن التخلي عن هذا الكشف الرائع للحكومة قبل أن ينضج أشبه بمن يربي طفلاً ثم يتخلى عنه بمجرد أن يتعلم المشي ..

التفت لي (ميخائيل) بعينيه الدامعتين .. وهتف :

- بعض الوقت .. لننتظر بعض الوقت فقد تتحسن الأمور ..!

وافقته على الفور خاصة وأنني لم أر أي داع لهذا التشنج .. يمكنه أن يقول ما يريد دون بكاء .. يبدو أنني لن أفهم هؤلاء اليونانيين أبدًا ..

* * *

عدت لغرفتي وأشعلت مصباح الكيروسين وشرعت أحدق في اللهب شارد الذهن .. ، هناك مشروع صغير أنوي القيام به .. ، ولكنني أحتاج إلى معونة .. وبالتأكيد ليست معونة واحد من الزوجين ..

مددت يدي أعبث في حقيبتي .. حتى أخرجت ما كنت أبحث عنه .. ، ثلاثة كتب عن تعلم اللغة اليونانية .. اثنان منهما للقارئ الإنجليزي وواحد للقارئ العربي .. ، أحتاج إلى فترة أسبوع أقضيها في دراسة مكثفة لهذه الكتب .. وبعدها .. بالطبع لن أستطيع قراءة مسرحية لـ (سوفوكليس)(*) لكنني على الأقل سآخذ فكرة مبهمة عن موضوع أية محادثة تدور أمامي ..

(*) (سوفوكليس) : كاتب مسرحي يوناني كبير .. أشهر أعماله (أوديب) و (أوديب في كولونا) .

حين تسمع عبارة يونانية طويلة تقال أمامك ، وتلتقط منها كلمتين فحسب مثل (عشاء) و (صديق) فإن الأمر لايبدو صعبًا .. بشيء من الخيال يمكنك استنتاج أن فحوى العبارة « أن صديقى يدعونى للعشاء » أو أعدى العشاء لصديقنا .. أو أية عبارة أخرى تناسب الموقف ..

هذا هو ما أريده ...

لم أكن أريد أن أظل تحت رحمة الترجمة وما تجود به على فهمى ..

وهكذا شرعت أدرس فى حماسة حتى توترت عضلات عينى ، وحين نمت أخيرًا كانت هناك صفحات كثيرة قد انتهت من الكتاب الأول ..

* * *

صباح اليوم التالى خرجت وحيدًا للنزهة (كما قلت لهما) ..

شرعت أمشى فى الجزيرة أرمق السكان فى نظرة متلهفة إلى كسر الحواجز الخرسانية المشيدة بيننا .. أنهم يبدون طيبين وبسطاء .. وأعتقد أن صداقتهم سهلة ولكننى لم أنس لحظة ما أمثله لهم : الشيطان الأصلع الذى جاء ليزيد الحياة تعقيدًا ..

إننى بحاجة لمعرفة هؤلاء القوم .. أن أسألهم عن أحداث تلك الليلة ، عن رؤيتهم الخاصة للأسطورة .. عن علاقتهم بالعالم (المتحجر) (ستافروس ديندرينوس) وعن علاقته بتلميذه (ميخائيل كاراداكيس) وزوجته ..

كل هذا سيُحل لو وجدت صديقًا واحدًا .. واحدًا فقط ..

بالإضافة إلى التحسن المحتم فى لغتى الوليدة ... لم أكن أريد أن ألم بقواعد اليونانية بل إننى لم أحاول حتى التعرف على حروف كتابتها ؛ كنت أريد (الحد الأدنى للأمان اللغوى) الذى حدثت عنه (هارى) يومًا ما فى أحد مقاهى (جامايكا) ..؛ أن أفهم ـ بالتقريب ـ ما يقال أمامى ..

وهذا لا محالة يحتاج إلى أن أجد من أتحدث إليه ..

ولكن من ..؟.. وكيف ؟..

ويبدو أن الحل كان أقرب مما توقعت ..

كنت مارًا بجوار البئر شارد الذهن أرمق بنصف اهتمام العذارى الساحرات حافيات الأقدام يملأن جرار الماء وهن يتصايحن ويمرحن .. كأنها صورة من رسم جدارى إغريقى قديم ؛ حين أطلقت إحداهن صرخة .. وهوت على الأرض فى الطين ..

أصابت الفتيات الباقيات حالة من الهستيريا وشرعن يجلسنها .. ويحاولن ـ يا لهن من حمقاوات ـ صبّ الماء فى حلقها ..

إنها مجرد حالة إغماء هستيرى أو ناجم عن هبوط الضغط الدموى أو أى شىء من هذا القبيل ...، والضحية تفيق تلقائيًا فى كل الحالات ما لم يحاول أحد الحمقى إجلاسها أو صبّ سوائل فى حلقها معــرضًا إياهــا للاختناق ..!..

الحق أقول إننى لم أدر ما أفعله .. شققت صفوف الفتيات المندهشات .. وانحنيت لأريح رأس الفتاة المغشى عليها على الأرض ..؛ وبصرامة أبعدت كل من تسوّل لها نفسها أن تحاول إجلاسها أو صبّ الماء على شفتيها ..

إن هذا هو ما يسميه الطب (الإهمال العلمى) .. ما أن تتأكد من أن ما أنت بصدده ليس نوبة قلبية .. عليك أن تترك المغشى عليه وشأنه حيث هو على الأرض دون محاولات بطولية .. حتى تتكفل وضعيته الراقدة بتسهيل وصول الدم إلى المخ .. عندئذ يفيق وحده ويتساءل : ماذا حل بى ؟..

وهذا هو ما أفعله الآن كأفضل ما يكون ..!

وهكذا ـ وبعد ثوان ـ بدأ الدم يعود لوجنتى الفتاة .. وانفتحت عيناها عن تلك النظرة الخاوية المجردة من أى معنى ..

كانت سمراء زرقاء العينين وخصلات شعرها الأصفر تتناثر فى إهمال على وجهها وفى الوحل .. وكان منديل رأسها القذر قد سقط منها ..، كانت جميلة لكنها ـ بالتأكيد ـ لم تكن نظيفة أو لعل سقطتها فى الوحل قد جعلتها تبدو كذلك ..

ما إن أحسست أنها عادت للعالم حتى ساعدتها على الجلوس .. وأشرت لإحداهن كى تناولنى كوب الماء الفخارى الذى تمسك به ، وناولته للفتاة ..

وتعاونت مع فتاة قوية العضلات على إنهاضها .. ومضينا فى صمت وهى متوكئة علينا إلى دارها ..

وفى داخل الكوخ الفقير خيل لى أننى أطوى الأميال إلى بيتى فى قريتى .. إن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان ، نفس الأثاث البدائى وأسراب الدواجن التى تتعثر فيها قدماك .. وإخوتها الصغار يلعبون فى الرمال ويرمقوننا فى فضول ...، ولهفة العجوز اليونانية المتشحة بالسواد والتى يمكن أن تكون أمى أنا ..

ومثل أمى ـ لو كانت شقيقتى هى التى أغمى عليها ـ شرعت توبخ الفتاة بسيل من العبارات اليونانية التى لاأحتاج لكثير ذكاء كى أستنتج معناها .. توبخها على خروجها دون إفطار ، أو على ارتدائها ثيابًا خفيفة أصابتها

بالبرد، أو ثيابًا ثقيلة جعلتها تختنق !.. أو أى شىء كانت ستقوله أمى فى هذه الظروف ..

ثم إن المرأة صبّت لى بعض (الأوزو) فى كأس وقدمته لى .. فرفضته شاكرًا، قائلًا :

ـ كرستوبلى ..!

ضحكت هى والفتاة ـ صديقة ابنتها ـ فى مرح ... ثم قالت لى الفتاة مصححة وهى تحرك شفتيها أكثر من اللازم لتنقل لى النطق بدقة :

ـ خريستوبولى ..!.. خريستوبو .... لى ....!

ـ خريستوبولى ..!

هكذا .. هذه أول كلمة منطوقة تُضاف لقاموسى اليونانى .. لقد ربحت كلمة .. وربحت ـ وهذا هو الأهم ـ خطوة أولى نحو مصادقة هؤلاء القوم ..

لقد بدأ ذوبان الجليد ..!

* * *

وهكذا صارت لى صلة صداقة لابأس بها فى هذه القرية، وبدأ عدد الساعات التى أقضيها فى هذا الكوخ مع تلك الأسرة الصغيرة البسيطة يتزايد تدريجيًا ..

لم يكن الأب موجودًا وقد تجنبت السؤال عنه بطبيعة الحال؛ لأنه إما ميت أو سجين أو منفصل ..!.. وكلها

حالات لاتسمح بالفضول .. وكانت الفتاة ـ واسمها (إيرين) ـ شيطانة صغيرة مراهقة هى للطفولة أقرب وقد اعتبرتنى منقذًا لحياتها دونما سبب واضح .. أما الأطفال فبدءوا يميلون إلى ..

هنالك كنت أجلس فى الشمس أداعب الصغار وأحدث (إيرين) عن كل شىء بلغتى اليونانية الوليدة وأكتب كل ما تقوله هى ـ بالنطق ـ بحروف عربية مُشكلة، وألتهم الفطائر التى تقدمها لى الأم ..

وتدريجيًا بدأ الجيران يقبلون حقيقة وجودى ويفهمون أننى مسالم .. وأننى لاأتحول لمصاص دماء حين يحل الظلام ..

* * *

لماذا لم أصارح الزوجين بحقيقة جولانى ؟..*

لاأدرى .. إنه ذلك الحافز الخفى الذى يراودنى باستمرار ويدفعنى إلى عمل أشياء حكيمة جدًا لاأدرى سببها !.. كل ما كانا يعلمانه عنى هو أننى أهوى السير فى الجزيرة وحيدًا لساعات طويلة كل يوم ..

والواقع أننى لم أكن الوحيد ..

(تابيثا) أيضًا صارت تختفى لساعات طويلة فى مكان لايعلمه إلا الله ، ثم زوجها ..

أين كانت تذهب ، ولماذا ..؟!..

لقد فهمت كل شىء فيما بعد .. ويا له من تفسير ..!

* * *



١٠ - الكوخ والنظارة الحجرية ..

الواقع أن لغتى اليونانية قد تحسنت إلى حد غير عادى خلال أسبوع (أو أكثر قليلًا) ... صحيح أن عينى قد أرهقت من الدراسة الشاقة ليلًا على ضوء مصباح (الكيروسين) خاصة وأننى لا أدرى من السفاح الذى فكر فى طباعة كتب تعليم اليونانية على ورق مصقول ..!، وصحيح أن خلايا ذهنى قد أوشكت على الاحتراق ؛ إلا أن النتيجة كانت رائعة ... وغدا حديثى مع (إيرين) - وهى تحفر الرمال بأصبع قدمها الدقيق - أكثر تمكنًا وسلاسة ..

فى ذلك اليوم دخلت لأجد (ميخائيل) جالسًا على المائدة الخشبية يدوّن شيئًا ما وأمامه أشياء حجرية دقيقة لم أدرك كنهها .. أشار لى لأجلس .. ثم مد يده والتقط .. سمكة حجرية تتلوى كانت أمامه ، وغمغم :

- هل رأيت هذه ؟!..

مددت يدى فى تردد .. والتقطت الجسم الأملس .. كانت سمكة من نوع مجهول كهذه التى نأكلها يوميًا ..، وكانت جاحظة العينين تتلوى فى ألم واضح كأنها فى شباك صياد ..، وكانت ثقيلة جدًا ..



مددت يدى فى تردد .. والتقطت الجسم الأملس .. كانت سمكة من نوع مجهول كهذه التى نأكلها يوميًا ..

ـ إن هذا يعنى ..

ـ نعم .. لقد غاص الرأس فى بحر (إيجه) !.. وتحجرت الأسماك !..

ـ ومن وجد هذه الأسماك ؟

ـ واحد من صيادينا .. كان يسير جوار الشاطئ حين وجد عشرات الأسماك الحجرية قذفها الموج هنالك ..

تأملت السمكة فى اهتمام .. ثم غمغمت فى حيرة :

ـ غريبة خواص الماء عندكم !..

ـ ماذا تعنى ؟..

ـ إن قوانين (أرشميدس) الخاصة بطفو الأجسام لاتسرى على (اليونان) فيما أظن .. رأس يهبط للأعماق ، وأسماك يتجاوز وزن الواحدة منها نصف الكيلوجرام وتطفو برغم ذلك ..!!

إزداد وجهه حيرة واتسعت عيناه الزرقاوان :

ـ إلام تلمح ؟

دون شعور أشعلت سيجارة متجاهلًا تعبير الاحتجاج على وجهه .. وقلت :

ـ إنها دعابة لا أكثر .. ولمرة أخرى أشعر أن هناك تلفيقًا فى الأمر ..، هناك من وضع هذه الأسماك عمدًا ليوحى لنا أن الرأس فى أعماق البحر ..، وليس هذا كل شىء ..

وضعت السمكة على المائدة .. وأردفت :

ـ الكفان النحاسيان ... خطر لى عندما وجدناهما أنه من الصعب أن يكون هناك (أثر لحام) فى كفى (ميدوسا) !.. لكننى لم أتماد فى خواطرى وقتها ولم أعلق أهمية ما على تلك الملاحظة ... لكنها هامة جدًا .. لقد تم صبّ هذين الكفين ولحام نصفى كل كف .. وقد ظل هذا الموضع واضحًا برغم ما قام به النحات من معالجة النحاس كيمائيًا لإكسابه منظر القدم ..

كان ينظر لى مقطبًا وعلى وجهه علامات الاهتمام .. على حين استطردت :

ـ ثم النقطة الأكثر أهمية .. لقد كانت تجول فى ذهنى حين ضربونى فى تلك الليلة والآن أعود فأتذكرها ... لقد مات كل ضحايا (ميدوسا) وهم يصرخون .. لكننا لم نجد تمثالًا واحدًا يصرخ .. هل تعرف السبب ؟..

ونفثت دخان السيجارة :

ـ لأن النحات العبقرى لم يكن يعرف كيف يبدو ضحاياه وقت الصراخ .. لقد أراد أن يحاكى ملامحهم بدقة ؛ لكن هذه الملامح كانت ستتشوه بشكل مريع لو حاول أن يجعلهم يصرخون وكان التعرف عليهم سيبدو صعبًا ... ثم تأتى النقطة التالية ..

وأشرت إلى نظارتى ..

ـ النظارة .. نظارة الأستاذ (ستافروس دندرينوس) .. قلتما أنه كان ضعيف البصر وكان يكتب خواطره على المكتب ثم نهض ليبحث عن الرأس تحت الفراش .. ألا يحتاج كل هذا إلى أن يظل مرتديًا نظارته ؟!.. والآن لم يكن تمثاله الحجرى يرتدى نظارة .. ولم يقل أحد إنه وجد النظارة .. لماذا ؟.. لأن نحت النظارة كارثة حقيقية وشديد الصعوبة (وثق أن لى خبرة فى هذا الصدد) ؛ لهذا فضّل نحاتنا تجاهل الأمر أملًا فى أن أحدًا لن يبحث عن هذه النظارة الحجرية ..

كان سيل استنتاجاتى يتوالى .. والنظرة المذهولة على وجه (ميخائيل) تزداد وضوحًا ..

ـ هكذا ترى يا (ميخائيل) أن اللعبة بأكملها لعبة نحات بارع .. صحيح أن لى تحفظات حول قدراته على نحت النظارات والوجوه الصارخة لكننى لا أشك فى موهبته لحظة ... هذا النحات استطاع أن يجعلنا نعيش فى كابوس حقيقى من صنع يده ..

ـ ولكن من هو ؟..

ـ هذا هو السؤال كما قال (شكسبير) ... على أننى لا أستبعد ما قلته من قبل .. وهو أن هناك ألعوبة محبوكة خططها هذا الـ (دندرينوس) بحثًا عن مجد علمى مزيف ... وهو الآن مختبئ ـ مع رئيس عماله ـ فى كوخ ما يضحكان ..

- و ... وكلبى الذى ...؟

- لقد تركنا الكلب فى الكهف فترة لا بأس بها كافية لأى شىء .. و ...

وهنا ابتلعت ريقى .. الواقع أن أحدا سوانا لم يكن ليستطيع أن يستعد بتمثال كلب تحسبًا لهذه اللحظة !،، من المستحيل أن يكون هذا النحات قد أعد تمثالًا لكلب يتلوى على أمل أن تستخدم الكلب للبحث عن الرأس يومًا ما ..

والواقع أننى ـ أعترف ـ أجد فى كل لحظة ما يدعم شكوكى فى هذين الزوجين اللطيفين ..، وأننى قد ارتكبت حماقة لا بأس بها حين صارحت (ميخائيل) بشكوكى .. لكن حكاية الأسماك هذه قد فاقت قدرتى على التحمل ..

فى هذه اللحظة انفتح الباب ودخلت (تابيثا) .. كانت غارقة فى العرق ومنهكة تمامًا وعلى ذراعها تتدلى حقيبة جلدية ثقيلة ، وما إن رأتنى حتى لوحت فى فتور وهى تلقى بحملها فى إهمال على الأرض :

- هاى ..!

- مرحبًا ..!

وجلست على المائدة .. ومدت يدها تتحسس الأسماك الحجرية الملقاة هناك ، نظر لها (ميخائيل) وقال لها

شيئا ما .. باليونانية !، تحفزت كل حواسى وأنا أنصت إلى عبارات اللغة التى لم تعد مبهمة بالنسبة لى إلى هذا الحد ..، كأنه كهف مظلم اعتدت دخوله .. واليوم أدخله لأول مرة حاملًا كشافًا كهربيًا !..

- هل أنت (... لم أفهم) الكوخ الآخر ؟

- نعم .. (.. لم أفهم) .. عمل كثير .. (لم أفهم ..) ثلاثة ..

- (لم أفهم ..) .. لا يصدق .. (لم أفهم ..) ..

- (.. لم أفهم ..) .. (لم أفهم) ..؟

- (.. لم أفهم) .. العامل .. (لم أفهم) .. الكلب ..

إن هذه المحادثة شديدة الأهمية .. هناك كوخ آخر .. تقوم فيه (تابيثا) بعمل كثير ينتهى بعد ثلاثة .. وقد أدركا أننى لا أصدق .. وأن العامل والكلب لهما علاقة بالموضوع .. هذا هو كل ما يمكننى استخلاصه ..، مشكلتى مع (إيرين) هى اعتمادها المطلق على الإشارة إلى أشياء بعينها مع ذكر اسمها .. تشير لكلب وتقول لى إن اسمه كذا .. تشير لكوخ وتقول لى إن اسمه كذا ..، لكن هذه الطريقة ـ طريقة الخواجة (ماكسميليان برليتز)(*) ـ تكون مرهقة جدًا إذا ما حاولت أن تشرح لى معانى مجردة مثل : الحياة .. الفكرة .. الجريمة ..

(*) (ماكسميليان برليتز) : أستاذ لغات عالمي له طريقة فريدة فى تدريس اللغات والتى تتبعها سلسلة معاهدة (برليتز) فى العالم كله .

القلق .. إلخ ... كما أن ترجمة الأفعال تصير شبه مستحيلة .. دعك من الظروف والأسماء الموصولة .. لكننى على الأقل أعرف أن هناك خطوة أولى .. الكوخ الآخر .. كوخ الأستاذ (ستافروس دندرينوس) حتمًا ..

سيكون على التسلل إليه هذه الليلة ... وكبداية لابد من سرقة مفتاحه من (ميخائيل) الأمر الذى لن يكون صعبًا إلى هذا الحد ... إننى لم أر شخصًا أكثر إهمالًا منه فى حمل المفاتيح ولن أحتاج إلا لدقيقة أبدل فيها بالمفتاح مفتاحًا صدئًا يشبهه تمامًا من سلسلة مفاتيحى الخاصة .. مفتاح دولابى الخاص فى المدينة الجامعية منذ عشرين عامًا على الأقل !

والآن .. تم كل شىء بنجاح .. ها هو ذا المفتاح فى قبضتى .. والشكوك فى صدرى .. ولكن .. لماذا نسيت مسدسى فى (مصر) هذه المرة ؟..

حقًا إننى أرتكب حماقات عديدة ..!

* * *

والآن نام الزوجان وساد الظلام الجزيرة ..

تعال معى .. هل ترغب فى مشاركتى هذه المغامرة القصيرة ؟.. إذا كنت لا تريد ذلك فهذا شأنك أما أنا فذاهب .. لا تخذلنى ..

ستأتى معى ..؟.. حسن .. فلنخرج من باب الكوخ فى هدوء وخفة ... ولنغلقه من ورائنا .. وفوق الرمال الناعمة نمشى نتحسس خطواتنا .. نحو الكوخ الآخر نمشى .. ونخرج المفتاح الصدئ نعالج به القفل على ضوء البطارية ..

إننى سعيد أنك قد جئت معى .. فإننى أشعر بالاطمئنان إلى حد كبير ..

احترس لأن دخولنا سيثير اضطراب الوطاويط .. إنها لا ترى ـ هذه المخلوقات البريئة البشعة ـ لكنها مرهفة السمع إلى حد مرعب ..

والآن أغلق الباب خلفك واتبعنى .. إن خشب الأرضية يصدر صريرًا ..وضوء الكشاف يرسم دوائر مرعبة فى كل مكان لكن لا تهتمّ ..

هذان هما التمثالان المفترضان للضحيتين السابقتين مع تمثالى الفأرين، و .. لقد اختفت بقايا تمثال الكلب المهشمة .. هل لاحظت هذا ؟ فيما عدا ذلك لا يوجد شىء يثير الريبة .. لا شىء ..

لكن ...

هل ترى هذه الآثار الواضحة فوق خشب الأرضية المكسو بالرمال ؟.. آثار قدمين متميزتين .. وبالتحديد صندل (تابيتا) ذى النقوش المتموجة ..

الأثار تتحرك ـ جيئة وذهابا ـ فوق خشب الأرضية وشعاع البطارية يجرى فوقها ... إلا أنها تتوقف عند .. عند هذا اللوح الخشبى المتحلل والذى لايثبته سوى مسمار محوى صدئ ..

هل هذا صوت باب كوخ يفتح؟!.. للحظة توقفت كل وظائفى الحيوية .. ثم قلت لنفسى إنه صوت الأمواج البعيدة ..

بعناية انحنيت فوق لوح الأرضية وعالجت المسمار المحوى ... ها هو ذا يدور مما يجعل رفع ذلك اللوح ممكنا .. هذا هو ما توقعته ... والآن سأرفع اللوح ببطء شديد .. وأوجه شعاع البطارية عبر الفتحة ..

إن تحته مايشبه الكهف المظلم .. إذن هذا هو المخبأ السرى الذى ترتاده (تابيثا) .. والذى يحوى تفسير كل شىء ..

هل أدخل؟.. لم لا ..؟.. إننى واثق أن الزوجين نائمان .. ثم إنك معى وهذا يكفى لكيلا يقتلنى الهلع ..

انحنيت على ركبتى ووضعت الكشاف فى فمى .. وشرعت أدسّ جسدى فى الفتحة الضيقة شاعرًا بآلام سنين عدم المران ... وفى محاولة حمقاء ألقيت بجسدى أرضًا ..

فوق الرمال هويت ـ من ارتفاع بسيط لحسن الحظ ـ وما أن استطعت الاتزان على قدمى حتى شرعت أتفحص المكان ... كان كهفًا صغيرا دعمت حوائطه بعروق خشبية عشوائية .. وفوق رأسى كانت الفتحة التى دخلت منها .. أن الصعود إليها ومغادرة المكان لن يكون سهلًا لكنه ممكن ..

بدأت أتفقد المكان ببطء شديد ..

علب طعام محفوظة مدفونة فى الرمال وبضع زجاجات فارغة ... ثم أدوات نحت مبعثرة فى إهمال هنا وهناك .. إذن هذا هو (الأتيليه) .. وعند قدمى وجدت بقايا حجرية مألوفة لى .. بقايا تمثال كلب .. لهذا بادروا بإخفاء هذه البقايا .. لأن تهشم التمثال أظهر بوضوح قطع السلك المغموسة كدعامات فى خامته .. لم يلحظ أحد ذلك فى الظلام لكن عينى النحات الخبيرتين فطنتا للأمر ..

رفعت شعاع البطارية فى بطء .. فوجدت ..

وجدت تمثالى وأنا أصرخ فى هلع ..! لبضع ثوان اختل توازنى تماما .. ثم بدأت أستعيد أفكارى ..

* * *

إنها لتجربة عجيبة أن ترى نفسك فى صورة تمثال بالحجم الطبيعى واقفًا يترنح وإحدى يديه تحمل كشافًا والأخرى تتلوى محاولة حجب الرؤية ..! كان التمثال متقنًا، ولم ينس النحات هذه المرة أن يضيف نظارتى .. وكان التمثال يرتدى قميصًا صيفيًا وبنطلونًا مشمرًا كأن صاحبه كان يسير على الشاطئ .. وعلى الوجه كانت الملامح المتقلصة تعكس أعتى أمارات الألم الممزوج بالرعب ..

وعند قدمى التمثال كانت ثلاث صور فوتوغرافية مألوفة لى ... الصور التى التقطتها لى (تابيثا) مداعبة منذ أيام ..!.. آه !.. الأوغاد !.. هذه المرة لم ينسوا النظارة .. وكانت عندهم صورة واضحة لى وأنا أصرخ التقطتها لى هى حين تظاهر (ميخائيل) بأنه يمازحنى وهوى بالرفش على قدمى ..!..

إذن (تابيثا) هى ذلك النحات العبقرى الذى نحت تمثالاً لى مستعينا بصور فوتوغرافية .. نعم .. فى أيام الدراسة كانت شيطانة الجامعة الموهوبة ـ كما قالت هى ـ تجيد الرسم والنحت وكتابة الشعر والقصة، ولها مراسلات تفخر بها مع (ماتيس) النحات العبقرى ... لكننى نسيت ..!.. نسيت تمامًا ..

لماذا فعلا ذلك ؟.. ما هو سر هذا التبدل الشرير فى شخصيتها ؟!..

لا أدرى .. ولا أرى تفسيرًا لكل هذا ..

لكن هناك حقيقة واحدة .. لقد أعدا كل شىء لاختفائى ... لقد تحددت الضحية القادمة لرأس (ميدوسا) .. وهذه الضحية هى أنا ..!

* * *

عدت للكوخ شارد الذهن تمامًا (لكنى لم أنس إزالة آثار أقدامى وإغلاق الباب) .. وقد بدأت أدرك أننى فى مأزق خطير ..

لقد قررا ـ لسبب ما ـ أن يتخلصا منى، وقد قررا أن يبدو الأمر على أنه حادث أليم ألم بى فى أثناء سيرى على الشاطئ .. فجأة وجدت رأس (ميدوسا) الذى ألقى به الموج على الرمال .. وقد حدث هذا ليلا لأننى كنت أحمل كشافًا .. لقد انتهى العد التنازلى فالتمثال مكتمل .. هذا هو سر اختفاء (تابيثا) المتكرر فى الأيام الماضية ... ومعنى هذا أن نهايتى ستتم فى الساعات أو الأيام القليلة القادمة ... وبعد ما قلته لـ (ميخائيل) لم يعد لديهما مبرر للتردد فيما يتعلق بشأنى .. إننى خطر داهم عليهما ..

* * *

هل أهرب ؟.. هل أبلغ الشرطة ؟..

هذا هو الحلّ الوحيد الممكن ..، لا مجال للمارسات البطولية ..، ولكن لربما كان إبقاء الأمور كما هي هو الحل الأفضل هذه الليلة .. بعض النوم لن يضير أحدًا ما دمت سأحكم إغلاق غرفتى ..، وما دمت سأتحلى بالحذر ..

وهكذا .. نمت .. ولكن أى نوم !..

فى الصباح جلست على مائدة الإفطار أرمقهما فى نظرات متوترة حاولت أن أخفيها قدر الإمكـــان ..، يا للنفاق !.. هما يريدان قتلى وأنا أعرف ذلك لكننا نتصرف كسادة مهذبين ..، بحذر تمكنت من أن أعيد مفتاح الكوخ الآخر إلى سلسلة مفاتيح (ميخائيل) وأن أسترد مفتاحى العتيق ..

صبّت لى (تابيثا) كوبًا من اللبن وقدمته لى .. ثم صبّت كوبًا آخر لزوجها ..، قربت كوب اللبن من شفتى وكدت أشرب لولا أننى لاحظت شيئًا ما ..

لماذا اختارت لى هذا الكوب الكبير المميز واختصت (ميخائيل) بالكوب الآخر ؟..

ولماذا تتجنب النظر لعينى، وترتجف شفتاها بهذا الشكل ؟!..

تباطأت فى تناول اللبن .. وأصخت سمعى لما يقول الرجل باليونانية :

- هل هذا هو الكوب (.. لم أفهم ..) ؟..

قالت دون أن تنظر لى أو له :

- نعم .. (لم أفهم ..) .. لبن .. (.. لم أفهم ..) .. يموت بعد دقائق !!

* * *



١١ ـ كشف الأوراق ..

أخذ عقلي يعمل كمحرك سيارة سباق ..

إن أمامي عدة حلول : أن أرفض الشرب .. أو أسكب الكوب بحماقة .. أو أتركهما وأفر .. لكن عقلي المحموم كان عاجزًا عن الموازنة بين هذه الحلول ..

قالت (تابيثا) في حنان وهي تبدأ إفطارها :

ـ ما بك يا (رفعت) ؟.. هل كرهت الحليب فجأة ؟!..

يا لك من أفعى !!.. هذه الرقة وكل هذا الحنان من أجل قتلي !.. لكن ماذا عساي فاعل ؟.. ليس من الحكمة إثارة ريبتهما لأن هذا قد يدفعهما إلى استخدام طرق أخرى .. (ميخائيل) قوي البنية وزوجته تمسك السكين لتقطيع الخبز ولن تكون مواجهتي معهما مضمونة النتائج لي أنا النحيل العجوز متلاحق الأنفاس ..

وهكذا .. كان الحل الوحيد الذي بدا لي ممكنًا ..

مددت يدي إلى المائدة فضربت كوب الحليب الذي انسكب على المائدة على الفور ..

شرعت أردد عبارات الأسف .. وأجفف المائدة بخرقة قماشية كانت هنالك .. لحظات ثم رفعت عيني لتلتقي بنظرة باردة قاسية في عينيْ (ميخائيل) الزرقاوين .. وعلى ثغر (تابيثا) الرفيع القاسي تلاعبت ابتسامة نصر وحشية ..

بعد ثوان خرج صوت (ميخائيل) باردًا هادئًا كنظرته :

ـ إذن أنت تفهم اليونانية ..!..

نظرت له في ذهول ... إلا أنه واصل الكلام دون أن يبدل جلسته :

ـ لا يوجد سُمّ في الكوب .. إنه مجرد اختبار بسيط أجريناه للتأكد من مدى فهمك لليونانية ، وقد نجحت في الامتحان .. أو بالأحرى رسبت فيه !!

* * *

رفعت رأسي في استسلام .. وقلت :

ـ كيف خمنتها ؟

قالت (تابيثا) بنفس الابتسامة :

ـ لا صعوبة في الأمر .. كنت ـ في البداية ـ تصغي لمحادثاتنا اليونانية بتلك النظرة الزجاجية الخاوية التي تميز كل من يسمع محادثة بلغة لا يعرفها .. مع لمسة قلق وتحفز توقعًا لأن يكون هو محور هذه المحادثة ... في الأيام الأخيرة تغيرت نظراتك .. لم تعد خاوية بل صارت ناطقة بالفهم .. بالمشاركة ، وإن حاولت إخفاء ذلك !!

قال (ميخائيل) :

ـ ثم إن لى مصادر معلوماتى فى الجزيرة .. من الحماقة أن تعتقد أننى لم أعرف بأمر زيارتك لهذه الأسرة اليونانية ومحاولاتك الجادة لتعلم اللغة اليونانية منهم ... لماذا لم تطلب المعاونة ؟.. بالطبع لأنك تريد ألا أعرف أنك تعرف .. ولماذا ؟.. لأنك تريد التجسس علىّ أنا و (تابيثا) .. ولماذا تتجسس ؟.. لأنك تشك ..!..

نظرت لى (تابيثا) فى رزانة .. وابتسمت نفس الابتسامة ، قائلة :

ـ إننى و (ميخائيل) نعتقد أننا نعرف ما تعرفه .. لكننا نريد سماع رأيك فى الموضوع .. هيًا !.. لا تخجل ..!

نهضت من مقعدى فى توتر مزمعًا أن أهرب ..

وهنا لمحت شيئًا ما فى يد (ميخائيل) جعلنى أدرك أن عرضهما لا يمكن رفضه ... مسدسًا أسود اللون بشع المنظر فى يده مصوبًا إلى وفوهته أكثر طولًا مما أتوقع .. لابد أن هذا هو (كاتم الصوت) الذى كنت أراه فى السينما .. وفى عينى (ميخائيل) رأيت الحقيقة .. إننى لن أخرج من هنا حيًا ..

أشعلت سيجارة عالمًا أن أحدهما لن يعترض هذه المرة .. وقلت وأنا أعود لمقعدى :

ـ حسن .. سأتكلم ..



وهنا لمحت شيئًا ما فى يد (ميخائيل) جعلنى أدرك أن عرضهما لا يمكن رفضه ..

خلص فوهة المسدس وإن أبقاها مصوبة على دائرة جسدى .. وأشار لى أن استمر ... أردفت :

ـ لقد كان الأمر كله محاولة للتخلص من البروفيسور (درندرينوس) الذى أعتقد أنه كان يهددكما بشىء ما .. ربما كان يملك دليلًا يدينكما فى شىء مثل .. مثل تهريب الآثار مثلًا .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. أنت لم تخطئ كثيرًا .. استمر ..

ـ وهنا ولدت الفكرة الجهنمية التى لا تكتبها إلا مؤلفة رعب موهوبة مثل (تابيثا) .. لماذا لا تعيدان أسطورة (ميدوسا) للحياة ..؟!.. لا تحتاجان إلا لتمثال أو اثنين .. ورأس محنط لقرد خيطت إليه بعض الثعابين ؛ لقد كان عملًا مقززًا لكن الفكرة المجنونة كانت قد تملكتكما .. ثم إن أحدًا ـ وكنتما تعولان على هذا ـ لم يكن ليجرؤ على تجاوز الحاجز النفسى والنظر للرأس مباشرة .. إن الصور الفوتوغرافية كانت ستخفى آثار التلفيق إلى حد ما ..

ـ استمر ..

ـ وبدأت (تابيثا) ترتب كل شىء ... لا أدرى هل قتلتما رئيس العمال أم أخفيتماه لكن التمثال أدى عمله جيدًا مع صرخة هلع .. وبعدها تتركان تقدير الأمور للبروفيسور العجوز الملتاع ... لقد راهنتما (وربحتما الرهان) على أنه

سيدون ما ظن أنه وجده فى دفتر مذكراته بخطه .. كدليل لا يمكن تجاهله ... وفى تلك الليلة حين أدرك أن هناك خدعة ما .. دخل (ميخائيل) الكوخ وصرعه .. ثم قمتما بوضع التمثال المعد مسبقًا عند الفراش .. لقد دبرتما الأمر كما تخيلتماه .. ونحتت (تابيثا) تمثالين لفأرين لتدعم قصة الكيس المثقوب ، بعدها يصرخ (ميخائيل) ، (بمجرد أن تنتهيا من إخفاء الجثة) وتبادران بالهرب من النافذة قبل وصول النجدة ... ثم ـ كما هو متوقع ـ يبرز الزوجان البريئان من كوخهما ويهرعان مع الباقين لنجدة الأستاذ ..

ـ الواقع أن حادثة الكيس المثقوب حدثت فعلًا .. كانت صدفة جميلة !!

ـ و (نيكوس) ؟.. هل قتلتماه ؟

ـ .. بالعكس .. إن رئيس العمال العجوز تعاون معنا فى تلفيق المشهد إلى أقصى حد .. وهو بنفسه الذى وضع تمثاله فى القبر المعد مسبقًا ـ منذ عدة أيام ـ ليكتشفه هو ..

ـ وأين هو الآن ..؟

ـ يا له من سؤال !.. فى واحد من الكهفين الموجودين أسفل الكوخ ينتظر انتهاء هذه المهزلة ليهرب معنا إلى (الولايات المتحدة) بعيدًا عن فقره وزوجته الثرثارة

الفظة ... من حسن حظك أنك وجدت الكهف الآخر فلم تقابله !..

صحت في ذهول :

- كـ .. كيف عرفتما ؟!

- إنك وجدت الكهف ؟.. هذا بسيط جدًا .. لقد ذهبت (تابيثا) صباحًا إلى الكوخ فلم تجد آثار أقدامها هناك !!.. هناك من نظف الأرضية بعناية ليزيل آثار قدميه هو .. وهو ليس أنا ولا (نيكوس) .. إذن من ؟!.. إن مفتاحك المزيف لم يخدعني لحظة ..

تنهدت في ضيق .. ثم واصلت الكلام :

- حسن .. لقد وصلت عبقريتكما الذروة في مشهد الكلب المتحجر ... إنها فكرتي .. فكرت فيها صباحًا وتحجر الكلب ليلًا .. من المستحيل أن أتصور أنكما نحتما كلبًا بهذه السرعة ، لكن هناك تفسيرًا بسيطًا .. إنكما كنتما تنتويان بالفعل أن تقترحا عليّ استخدام الكلب .. ولهذا أعددتما كلبًا متحجرًا لهذا الغرض ، إلا أنني قدمت لكما الفرصة بحماقة حين عرضت أنا استخدام الكلب .. وهكذا نفذت الخطة بسهولة وأعتقد أن (نيكوس) هو من وضع التمثـال في اللحظـة التي تركنـا فيهـا المقبـرة لنحمي عيوننا .. أرجو ألا تكونا من الشرّ إلى درجـة قتل هذا الحيوان .. البريء ؟!

قالت (تابيثا) في استنكار :

- مستحيل !.. هل تظننا سفاحين ؟!.. إنه الآن يلعب مع (نيكوس) في مخبئه السري ..

ألقيت عقب السيجارة على الأرض .. وقلت مستطردًا :

- نأتي الآن إلى اختفاء الرأس ... كان هذا هو الحل الوحيد والممكن لأنكما لم تجرؤا على ترك هذا الرأس لقبضة العلم التي لا ترحم ... لهذا كان على الرأس أن يختفي .. ليلة تحجر (البروفيسور) ثم ليلة تحجر (الكلب) .. لقد أجادت (تابيثا) خداعي حين استبدلت رأس الكلب الحجرية برأس (ميدوسا) في كسر من الثانية ...
و .. هل استبدلت الرأس قبل أم بعد التصوير يا (تابيثا) ؟

- بالطبع قبل التصوير حين أبعدتم أنظاركم عن الصندوق .. إن الصور الفوتوغرافية كانت معدة مسبقًا يا عزيزي (رفعت) ... ولو أنك قوي الملاحظة حقًا لكنت قد لاحظت أنني كنت أرتدي خاتمي في الصورة في حين كانت أصابعي بلا خواتم في الحقيقة !..

ابتسم زوجها ، قائلًا :

- إن الرجال لا يلاحظون هذه الأشياء أبدًا يا ملاكي ..

- كان هذا لحسن حظي ..

قلت مواصلًا تجميع الصورة المبعثرة :

- طبعًا كان (نيكوس) هو الملاك الحارس الذى جمع بقايا تمثال الكلب وأعادها للكوخ ليلتها ..؟

- طبعًا ..

تنهدت فى إرهاق .. كانت لعبتهما شديدة الإحكام، وكانت نتيجتها الحتمية هى الخلاص من البروفيسور المزعج الذى لن يفتش أحد عن جثته بعد اليوم لأن القصة كلها ستعتبر ظاهرة غير قابلة للتفسير يحكيها كتاب الغرائب فى كتبهم .. وكان اسم (ميخائيل) سيدخل كتب علم الآثار بدلًا من أن يدخل فى قوائم المحكوم عليهم بالإعدام ..

ضربة مزدوجة موفقة حقًا وقد تم التخطيط لها بعناية، لولا ذلك (الشيطان الأصلع) الذى ظهر لهما فجأة ليفسد كل شىء باستنتاجاته بدلًا من أن يؤيده .. وهكذا غدا الخلاص منى حتميًا .. وبنفس الطريقة النظيفة التى تؤيد ولا تدحض قصة (ميدوسا) ..

والآن ليس لديهما حل سوى قتلى .. ووضع تمثالى جوار الشاطئ ليحكى مأساة عثورى على الرأس الذى قذفت به الأمواج ..

قال (ميخائيل) باسمًا وهو يصلح شيئًا ما فى كاتم الصوت :

- فيم تفكر ؟..

- فى الهرب ..!

تبادل وزوجته نظرة جانبية خبيثة .. ثم قال :

- لا أمل .. إننى أستطيع أن أزيل كل أثر لتمثالك يا (رفعت) وأخفى كل ما دلك على حقيقتنا .. ثم أتركك تحكى قصتك المعقدة للبوليس دون دليل واحد .. كلامك مقابل كلامى .. لكن هذا سيفتح أبوابًا لا داعى لها .. وسيجد البوليس مئات الثغرات فى موقفى .. إنهم قادرون على إثبات آثار النحت فى تمثال البروفيسور .. وقادرون على العثور على الكهف .. وسيجدون مئات البصمات - حيث لا ينبغى أن يجدوها - فى كل مكان تقريبًا .. وسينزحون قاع بحر (إيجه) كله إذا أرادوا بحثًا عن جثة البروفيسور ورأس (ميدوسا) المزعوم .. إن رجال البوليس جبابرة وليس من مصلحتى إقحامهم فى هذه القصة .. ألا توافقنى ؟!

- بلى .. !.. لا يمكن خداع رجال الشرطة أبدًا ..

- لهذا دعنا ننته من هذه القصة سريعًا ..

ورفع فوهة المسدس نحو رأسى ..

* * *

كلا .. لم أمت !.. بالطبع وإلا فما حكيت لكم حرفًا واحدًا من هذه القصة .. فقط سقطت من على مقعدى فاقد الوعى من الرعب ..، طبعًا هذا ما تظاهرت به .. وقد تحطمت إحدى عدستى نظارتى خلال سقطتى الحمقاء ..

وهكذا سمعت (ميخائيل) يلعننى باليونانية ويهبّ نحوى ليرى ما هنالك .. أنفاسه تقترب منى وركبته تلامس وجهى .. ركبته اليمنى .. إذن فالمسدس على بعد سنتيمترات أعلى من هذه الركبة حيث انحنى ليفحصنى .. لا وقت للتردد أو للتفكير فى شعور من يخترق الرصاص مخه ..

بسرعة البرق رفعت يدى و ... أمسكت يده .. يده الملتفة حول زناد المسدس .. وثنيتها عند الرسغ ثم وجهت أعنف لكمة ممكنة إلى ذقنه .. كان هذا كافيًا فى السينما كى يترك السلاح .. إلا أن الواقع أكثر تعقيدًا للأسف .. إن الوغد لم يترك المسدس بل ازداد تشبثًا به ..!

ضغطت على الزناد فوق إصبعه بعنف .. سمعت صوتًا غريبًا .. بوف !.. بوف ! كسدادة زجاجة من الفللين يتم انتزاعها .. ولم أفهم هذا الصوت إلا حين سمعت صوت تهشم الأطباق على المائـــدة ..، إذن هذا هو صوت الرصاص مع كاتم الصوت ..!..

كان يغرس أنامله فى وجهى وهو يضغط على أسنانه ويبتسم بقسوة وثقة مما زعزع ثقتى بنفسى (وهو تأثير كان يتعمده طبعًا) .. إلا أننى واصلت التشبث بالزناد كالمسعور ..

لكماته تنهال على وجهى وعنقى .. وصوته الرزين الهادئ ، يردد :

- هيًا يا صغيرى !.. إن هذه الألعاب لا تناسبك !.. هيًا !.. اتركه !

وهنا لمحت بطرف عينى (تابيثا) تتقدم نحو كيسها الملقى على الأرض وتخرج منه مطرقة .. مطرقة كبيرة .. ولمحتها ترفعها وتتقدم نحوى وهى تقول له باليونانية شيئًا ما ..!

لم أترك مجالاً للصدفة .. ثنيت ذراعه بعنف .. نحوها .. و .. ضغطة أخرى على الزناد لأسمع المزيد من سدادات الفللين تنفجر ..، ولمحتها تُقذف نحو الحائط الخشبى لتصدمه برأسها ثم تسقط على الأرض والدم ينفجر من كتفها ..

كانت هذه الإصابة هى التى رجحت كفتى .. إذ تشتت (ميخائيل) توغا .. وبدأت ثقته المفزعة بنفسه تتدهور ..

مددت يدى وهو يجثم فوقى .. المزيد من سدادات الفللين .. بوف !.. بوف !.. كليك !.. لقد انتــهت السدادات !.. فرغت خزنة الرصاص أخيرًا ..!، والآن نحن متعادلان إذا ما تجاوزنا عن قوته الجسدية المروعة ..، وإلى جواره أرى المطرقة .. المطرقة التى أفلتت من يد (تابيثا) حين سقوطها .. إنها فى متناول أناملى ..

أمد يدى لها .. أمسكها .. وبيد مرتجفة أرفعها .. أهوى بها على رأسه بأرق ضربة استطعت أن أوجهها له لأنى لا أريد أن أفجر رأسه ..

كان هذا كافيًا .. إذ سرعان ما تراخت قبضته .. وتهالك جسده من فوقى .. تحسست نبض عنقه لأتأكد من أنه لم يمت .. ثم تحاملت على قدمى المتخاذلتين إلى الباب .. وفتحته .. ضوء الشمس بالخارج .. والناس الأبرياء ..

صرخت بالعربية بصوت مختنق مرتجف :

ـ النجدة أيها الناس الطيبون ..!.. النجدة !..

* * *

متهالكًا عدت إلى (تابيثا) حيث أسندت ظهرها إلى الحائط ومددت قدميها على أرضية الكوخ .. كان الدم يغرق قميصها ، وثمة نظرة ثابتة مفزعة فى عينيها وهى تنظر إلىّ وتردد دون كلل :

ـ لماذا يا (رفعت) ؟.. لماذا ؟.. لقد كنا أصدقاء ..!!

بماذا ترد على هذا السؤال المستفــز ؟!.. لا شىء بالطبع .. لهذا ! اكتفيت بسؤال آخر وأنا أضغط على مكان النزف بمنديلى :

ـ كيف تغيرت إلى هذا الحد يا (تابيثا) ؟!.. كيف تحولت إلى هذا الوحش ؟!..

قالت لاهثة والعرق البارد يكسو جبينها :

ـ من السهل .. أن تقول هذا .. لقد ضحيت بكل شىء من أجل .. (ميخائيل) .. لكننا عرفنا .. الفقر .. والجوع .. لم .. يكن .. أمامى .. سوى أن أظل مع زوجى حتى النهاية .. أن .. شيطانة الجامعة .. المترفة .. تختلف كثيرًا عن زوجة .. عالم الآثار .. البائس .. هل .. فهمت ..؟..

ـ لا ..!

أغمضت عينيها وازدادت شفتاها جفافًا .. القشور البيضاء تتجمع عند ركنى فمها :

ـ لأنك .. أحمق .. أحمق كعهدى بك يا (رفعت) ..

* * *

وكان الرجال قد ملئوا الكوخ وشرعوا يتساءلون عما حدث .. حين أدركت أننى لم أعد أستطيع الصمود أكثر .. لم أعد أستطيع......

وسقطت على الأرض فاقدًا وعيى بالفعل هذه المرة ..

خاتمة ..

لم يمت أحد .. لقد نجا الزوج من ارتجاج المخ ونجت (تابيثا) من الرصاصتين اللتين اخترقتا كتفها.. وكان تفسير موقفي عسيرًا في البداية لأن أهل الجزيرة ظنوا أنني أنا المعتدى على هذين الزوجين الوديعين ..

إلا أن نظرة واحدة للكوخ الآخر ولمحتويات الكهفين أسفله بما فيها من آثار نحت وتمثال لي وكلب (تابيثا) و (نيكوس) نفسه ؛ كانت كافية جدًا لأن يفهموا كل شيء ..

وحين حضر زورق الشرطة ليأخذ الزوجين .. تحاملت على نفسي وصافحت (ميخائيل) في تهذيب ، وقلت له :

ـ في المرة القادمة لا تبن خدعك على أسطورة وثنية قديمة لأن هذا يفسد الأمر كله ..

ثم إنني نظرت لأمواج البحر المتلاطمة .. وهمست :

ـ هذا ـ بالطبع ـ لو كانت هنالك مرة قادمة ..

قالت (تابيثا) في تنمّر وشعرها يتطاير مع الريح :

ـ كان خطؤنا الأكبر هو دعوتك .. ظننا أنك ستكون شاهدًا معنا لا علينا ..

ـ أنت تنسين يا صديقتي أنني مجرد هاوٍ يبحث عن الأساطير ليهدمها .. وعلى كل حال أنا مدين لكما بثمن التذكرة ..!.. هذا حقكما ..

ـ لاداعي لذلك .. إنه واجبنا نحو صديق قديم عزيز مثلك ..!

ـ ما تمت مصرّة ..

وركبنا الزورق .. وهدر المحرك ..

لم ينظرا لي لحظة واحدة .. لكنني ظللت أرمقهما حتى ابتعدا عن مجال بصري ..

والآن أعود لمصر ..

الآن أنعم ببعض لحظات الراحة والأمن بعيدًا عن هذا الكابوس ..

إلا أنه ـ في تلك اللحظات ـ كان هناك كابوس أكثر شناعة يخرج من مكمنه لينتظر عودتي بفارغ الصبر ..

ولم أكن أعرف ..

كعادتي لم أكن أعرف ...

لكن هذه قصة أخرى ..

د . (رفعت إسماعيل)

القاهرة ١٩٩٢

* * *

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط التشويق والرعب والإثارة

أسطورة رأس ميدوسا

تقول الأساطير اليونانية إن
(برسيوس) قتلها وقطع رأسها..
ولكنها لم تحدد أبدًا أين ذهب هذا الرأس
بعدها..؟!
إن من يجد هذا الرأس الذي تحوّلت شعيراته إلى
أفاع سامة يملك أن يحوّل من يريد إلى تمثال رخامي
بمجرد أن يريه العينين..
خذ الحذر.. قد تكون عيناها تنظران لك
الآن!.. وحين ترفع عينيك من
السطور لربما لاقتا عيني
(ميدوسا)..!!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم: أسطورة حارس الكهف

الثمن في مصر
١٠٠ قرشًا
وما يعادله بالدولار
الأمريكي في سائر
الدول العربية
والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع